بسم الله الرحمن الرحيم

الظاهرة الحسينية



BP
٢٦٠/٣٠٨
٨ ح /
٦ ظ

الحلو، محمد علي، ١٩٥٧-   م.

الظاهرة الحسينية / تأليف محمد علي الحلو. - كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٣٢ق. = ٢٠١١م.

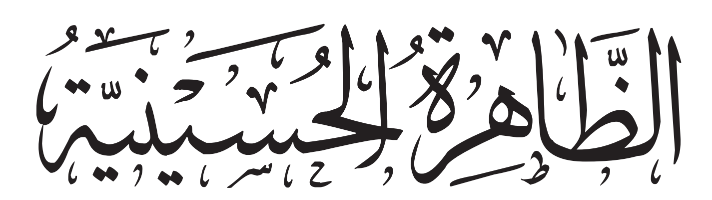
١١٢ ص. - (قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة؛ ٤٧)

المصادر في الحاشية.

١. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، ٤ - ٦١ ق. - مراسيم العزاء - دراسة وتعريف. ٢ . واقعة كربلاء، ٦١ق. - شعائر ومراسيم مذهبية - دراسة وتعريف. ٣ .الشيعة - شعائر ومراسيم مذهبية. ٤. عاشوراء - فلسفة - روابط - مأتم العزاء . ٥ . الحسين بن علي (ع)، ٤ - ٦١ق. - أصحاب - ٦ . واقعة كربلاء، ٦١ق. والنساء المسلمات . ٧ . المجالس - آداب ورسوم . ألف . العنوان.

BP ٢٦٠ / ٣٠٨ / ٨ح ٦ظ

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر



الظاهرة الحسينية

تأليف

السيد محمد علي الحلو

إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة
وحدة الدراسات التخصصية في الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩
Web: www.imamhussain-lib.com
E-mail: info@imamhussain-lib.com

الإهداء

إلى كل الشعائريين..

الذين سقطوا في محراب الشهادة الحسينية..

إلى الخطباء والرواديد

وإلى كل مشاة كربلاء الذين ضرجوا أرض الطفوف بدماء المعارضة

والإصرار.. إلى اللذين علماني تراتيل الولاء

وهمسا في أذني وصيتهم الأخيرة..

«ابد والله ما ننسى حسينا»

أبي وأمي

إلى روحيهما المتعلّقتين في فناء الحسين..





قارئي العزيز:

ستجد ان بحوثنا هذه لم تعتمد على مصادر معينة في تعزيز الفكرة وإرسائها، فالبحث يعتمد على المشاهدات الوجدانية فضلا عن المرتكزات العامة التي سيجدها القارئ مخبوءةً في مطاوي الذاكرة؛ والبحث مجرد تحفيز لذاكرة القارئ وتقريرٌ لوجدانياته ومرتكزاته.

المقدمة

إني أقف الآن على أعتاب دراسةٍ جديدةٍ وخطيرة دون ان ألج في أعماقها، فهي دراسةٌ اجتماعية، تاريخية، سياسية، اقتصادية، إلى غير ذلك من الأبعاد الحياتية، وهي دراسةٌ ترتبط بالشعور العام لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام، وهي كذلك تنظر لحركةٍ علميةٍ ـ عملية تأخذ التاريخ إلى أبعاده وأغواره، ثم هي تحيل البحث إلى حاضرٍ مقروء ومستقبلٍ منظور يستميح الزمن عذرا ان يجعل أحد أبعاده تتراوح بين زمنٍ أولد الحادثة وقد مضى، وزمنٍ يستعيدُ الحادثة شخوصا ومواقف، وإذا كانت القضية المبحوث عنها الآن تختم الزمن بكل دقائقه الماضية منها والحاضرة فيها والقادمة إليها بظاهرةٍ استقطبت إليها المثل، وتزاحمت في صياغتها المبادئ لتصيغها على أنها ظاهرة، وتعنونها على أنها قيادة أُمة وصياغة إنسان فإن الظاهرة الحسينية تنشط في مخيلة الإنسان كما أنها تعزز في حركته، ثم هي تبدو مشخصة في كل أطوار تعاملاته، فيجدها في رجلٍ، أو يتحسسها في طفولة بريئة، أو يقرأها في عنفوان شباب، أو يستمع إليها في عفة امرأة، أو يجدها لدى شيخ كبير احدودب ظهره لتشمخ همته إلى أقاصي الفتوة مسترجعاً طاقته ليبدع في كثير، وهي ـ أي الظاهرة الحسينية ـ يقرأها في شارع، أو يصادفها في سوق أو تمثل له في لافتةٍ تلفت إليها أنظار المارة، وهم يستشمون فيها عبير كربلاء، وبين هذه المتراميات من الإحداث، والمتباعدات من المواقف تجتمعُ لدى أي

إنسان مواد الظاهرة الحسينية فيقرأها في كل يوم دون أن يُصغي إلى عنوان الظاهرة أو يلتفت إلى حضورها في كل أحايين حياته، فهو يدخل في برنامجها التنظيري ويعمل على إيجادها ويسعى في صياغتها دون الالتفات إلى عنوان الظاهرة أو شخوصها.

ولعل دراستنا هذه ستشارك في التنبيه على حضور الظاهرة الحسينية في كل أحوالنا دون الانتباه إليها، فان القارئ سيجد كل مواد الظاهرة موجودةً لديه تعايشه من الصباح إلى المساء، ولم تكن هذه الدراسة سوى استعادة الظاهرة الحسينية إلى حضور الذاكرة، أو تحفيز الذاكرة إلى استحضارها ليقف القارئ يرتب من جديد مواد الظاهرة الحسينية الحاضرة.. لكنها الغائبة.

السيد محمد علي الحلو

النجف الشرف

التجليات

لابد لنا أن نشير إلى أن الظاهرة الحسينية تتجلى في كثير من الموارد منها:

حالة التضحية والفداء التي تظهرها مواقف تاريخية، ابتداء من واقعة الطف حتى وقتنا الحاضر.. حتى المستقبل. وبمعنى آخر ستكون الظاهرة الحسينية مهيمنة على الماضي التاريخي بكل شخوصه، والحاضر الحسيني بكل مواقفه، والمستقبل المنظور، ولعلنا نحدد هذه الظاهرة الثلاثية كالتالي:

ألف - ظاهرة التاريخ التضحوي

وتتجلى في كربلاء تلك الواقعة التي حددت مساقات التاريخ التضحوي بكل دواعيه، وجعلت كربلاء ينشدها الجميع، وذلك من خلال مواقف بعض الأصحاب. وإطلاقنا على هذه الظاهرة بالتاريخ التضحوي كون هذه المواقف - في نظرنا- استوعبت كل التاريخ الجهادي، وتبقى الحالات الجهادية كلها تقتات على تلك المواقف، أي لم تبلغ ما بلغته المواقف الكربلائية فهي باتت تهيمن على الحالة الجهادية وفي حقيقتها صارت هذه "حالة تعبوية" وبرزت كظاهرة نستجليها من خلال المواقف التالية التي ستكون ظواهر مستقلة بذاتها لعدم إمكانية تكرر حدوثها بنفس النسق التضحوي المتميز.

ظاهرة سعيد بن عبد الله الحنفي أو ظاهرة التضحية من أجل القيادة

فقد عمد سعيد هذا أن يكون درعا للإمام الحسين عليه السلام يتلقى الحتوف من خلال السيل الجارف للسهام التي وجهها القوم للإمام مستغلين انشغاله بالصلاة، ووجد سعيد فرصة التضحية حاضرة بدفعه لتلك السهام وتلقيه جرعات الموت ليكابر عند وقوفه وتحمله ما يحل به ثم بعد الانتهاء من الصلاة يتلقى الإمام الحسين صوت سعيد الخافت ليقول للإمام: أوَفيت يابن رسول الله؟ فكأنه يستأذن بالسقوط على الأرض، فيقول له الإمام: نعم أنت أمامي في الجنة.

هذه الظاهرة وهي فداء القائد والتضحية من أجله تميزت بها القضية الحسينية كظاهرة، وهي تدل على قناعة بل يقينية القاعدة بقيادها.

ظاهرة عابس الشاكري أو ظاهرة الوقوع على الموت

معنى الوقوع على الموت أن يجعل الإنسان نفسه وقفا على التضحية والفداء من أجل تحقيق الغاية بأقصر الطرق، وبمعنى آخر أن حالة الإذعان للقضية يجعل الإنسان متلهفا لملاقاة اشد النتائج وأوقعها بكل طمأنينة بل بكل شوق.

وظاهرة عابس الشاكري تلخص بهذا الموقف

وأقبل عابس بن شبيب الشاكري على شوذب مولى شاكر وكان شوذب من الرجال المخلصين وداره مألف للشيعة يتحدثون فيها فضل أهل البيت.

فقال: يا شوذب ما في نفسك أن تصنع؟

قال: أقاتل معك حتى أُقتل، فجزّاه خيرا وقال له: تقدم بين يدي أبي عبد الله عليه السلام حتى يحتسبك كما احتسب غيرك وحتى احتسبك، فان هذا يوم نطلب فيه الأجر بكل ما نقدر عليه، فسلم شوذب على الحسين عليه السلام وقاتل حتى قتل.

فوقف عابس أمام أبي عبد الله عليه السلام وقال: ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد اعز علي منك ولو قدرت أن ادفع الضيم بشيء أَعزّ عليَّ من نفسي لفعلت، السلام عليك، أشهد أني على هداك وهدى أبيك.

ومشى نحو القوم مصلتا سيفه وبه ضربة على جبينه فنادى: الا رجل؟ فأحجموا عنه لأنهم عرفوه أشجع الناس، فصاح عمر بن سعد: ارضخوه بالحجارة، فرمي بها فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره وشد على الناس، وانه ليطرد اكثر من مائتين، ثم تعطفوا عليه من كل جانب فقتل.(١)

فإلقاء الدرع والمغفرة حالة من حالات "التبرع" في آليات الدفاع عن النفس والتنازل عنها مقابل ان يطمع العدو "الجبان" في منازلته وهذه الحالة ساعدت الأعداء أن يقاتلوا عابساً حينما تخلى عن كل آليات الدفاع ليسهل – في نظر الأعداء– قتله، وهذه الظاهرة هي من ظواهر الوقوع على الموت نتيجة لحالة اليقين التي وصل اليها عابس في قضيته وقناعته في صحة ما هو عليه دون تردد، بل بإقدام يعد من أشجع الظواهر التي تابعناها في دراستنا هذه.

ظاهرة واضح وأسلم وظاهرة فناء الذات

وهي ظاهرة تعني إلغاء الذات من اجل بقاء الهدف، أو فناء الذات لبقاء الأسمى. وبمعنى آخر أن يلقي الإنسان ذاته من اجل البقاء على الهدف الأسمى أو تحقيقه.

وتتلخص في ظاهرة واضح وأسلم كما وردت في المقاتل هكذا:

كان واضح غلاما تركيا شجاعا قارئا، وهو مولى للحارث المذحجي السلماني، وقد أبلى في كربلاء بلاء حسنا.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٣٠٣.

ولما صرع واضح التركي استغاث بالحسين عليه السلام، فأتاه أبو عبد الله عليه السلام واعتنقه وهو يجود بنفسه فقال: من مثلي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضع خده على خدي، ثم فاضت نفسه الطاهرة.[١]

ومشى الحسين إلى أسلم مولاه واعتنقه وكان به رمق فتبسم وافتخر ومات.[٢]

ولو وضعنا خطاً تحت مادة "تبسم" وتحت مادة "افتخر" لوجدنا أن ظاهرة إلغاء الذات من أجل الذات الأسمى تبرز من خلال هاتين المادتين، ونحتاج إلى إضافة مقولة واضح حينما يعتنقه الإمام الحسين عليه السلام ليقول «من مثلي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضع خده على خدي» تبرز لدينا ظاهرة الإلغاء الكامل للذات ليتحقق لنا الهدف الأسمى، وهذه ظاهرة لابد من توفرها في مواقف تحقيق الهدف، إذ لم يشعر واضح انه أقدم على الموت وأهدى نفسه للفناء مقابل بقاء الأسمى وهو الإمام، بل لم يصل إلى حالة التفضل التي يُشعرها به موقفه التضحوي بل شعر بالإلغاء لموقفه ومن ثم لذاته التي لا ينظر في هذه اللحظة إلا إلى الذات الأسمى وهو الحسين عليه السلام فهو يفتخر ان يكون الحسين عليه السلام قد أبدى له القبول والرضا بما فعله عند مصرعه.

---

(١) مقتل العوالم: ٩١.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٣٠١.

باء - ظاهرة الحاضر الحسيني

لا يسعني الآن إلا ان أطلق على كثير من الحالات التي يرصدها المتتبع لتشكل ظاهرة لحاضرنا بكل توجهاته ارتبط بإرادته أو دونها بالقضية الحسينية، وإذا أردنا ان نرصد مثل هذه الظواهر فلابد أن نؤسس لهذه الظاهرة قاعدة نستفيد منها في ملاحقة كثير من الظواهر لترتبط بالقضية الحسينية وتشكل من خلالها ظواهر متتابعة أو لتصحيح التعبير نقول عنها متراكمة تتدافع تباعا لتشكيل جملة ظواهر.

القاعدة التأسيسية

حيثما يرتبط الفكر الإنساني بقضية معينة فان ذلك سيحقق داعيا للاقتداء، وهذا الداعي سيشكل قوة ضاغطة توجه العقل الجمعي لتقرير هذه القضية من خلال عملها هذا، بل تتعدد هذه القوة الضاغطة كمجموع إفرادي على العقل الفردي لينتج قضية مشابهة بتلك القدوة، إذن سيكون الداعي الإبداعي متوفراً على الفرد أو الجماعة ليحدث لها حالة محاكاة لقضيتها "القدوة"، فتجاريها من دون الالتفات أحيانا إلى تلك القضية، إذ إنها تطبقت بظروفها.

اذن :

القضية الحسينية تهيمن على مشاعر الفرد أو المجموع تبعا لمقتضيات المشهد الذي ستشارك القضية الحسينية في "إخراجه" ليكون ممهورا بالحسين ذلك المقدس الذي

استحوذ على كل الإحساسات المشاركة في صياغة المفردة لترتبط بالقاعدة التأسيسية للظاهرة.

ان الحس الإنساني يرتبط مباشرةً من بعيد أو من قريب بالقضية الحسينية بغض النظر عن الانتماء القومي أو الإقليمي وحتى الديني، ولذلك جعلنا قيد "البعيد" و"القريب" قيدا احترازيا تحدده الانتماءات المختلفة لتشكل من خلالها الظاهرة.

الحاضر:

إننا لابد ان نعترف بأن الظاهرة الحسينية موجودة في دواخلنا سواء كانت دواخلنا الفردية أو دواخلنا الاجتماعية. ولا يمكن لنا تقنين هذه الظاهرة لعفويتها أو قل لعفوية الانتساب لهذه الظاهرة.

ولابد هنا ان نرصد تلك الحالات المتشكلة منها الظاهرة الحسينية لتعدد الظاهرة بتعدد حالاتها، ومن أهم تلك الظواهر:

أولّا: ظاهرة التضحية الشعائرية على المستوى الفردي

لا نتحدث الآن عن الماضي التضحوي، بل لدينا حالة حضور لقضية تضحوية وبشكلها المتصاعد ترمز الى تفاعل القضية الحسينية في نفوس "التضحويين الشعائريين" ولعل المصطلح هذا سيعيننا على رصد الحالات الشعائرية التي تنامت بعد واقعة عاشوراء.

لقد أثبتت واقعة عاشوراء مسايرتها لكل زمن وتفاعلت معها على أنها قضية استجابت لكل متطلبات النفس الإنسانية وعالجت الكثير من غوامضها التي لم تستشرفها الا واقعة الطف، اي أن عاشوراء استجابت للنفس الإنسانية وتحركت على ضوء تداعيات حاجتها الجزئية أو قُل إن عاشوراء دخلت في غوامض النفس الإنسانية وحققت طموحاتها التي لم تحققها أية حركة إصلاحية أخرى.. وإذا كان الأمر كذلك فانه من المؤكد ان تنزع النفس الإنسانية إلى أن تتخذ نفس المساقات التضحوية العاشورائية، اي ستكون حالة بذل النفس هي العلامة الفارقة والخصوصية المتميزة بها النفس التضحوية التي تريد ان تساير السياقات العاشورائية في الانصياع إلى التضحية وبذلها بشكل رخيص جداً لمبادئ الحسين عليه السلام الذي بات رمز التضحية والفداء.

فضلا عن كون النفس نزاعة إلى رد الإحسان ومقابلته بإحسان مثله وعلى هذا سارت الرؤية الفردية وكذلك الاجتماعية في التعاطي مع القضية الحسينية. إن ما يمثل ظاهرة بذل النفس في الرمزية العاشورائية هي الشعائر الحسينية والتي تتمظهر بالحالات التالية :

١- ظاهرة الدم العاشورائي

وتعد هذه الظاهرة من أبرز معالم التضحية العاشورائية التي ألهبت المشاعر وأحالت الرمزية العاشورائية إلى تمحور تضحوي يتمحور من خلاله شعور المشارك حول الفداء وبذل النفس، فإخراج الدم من رؤوس المشاركين بمحض إرادهم يدل على الرغبة في إظهار الجانب التضحوي بفدائيةٍ متميزة يثبت من خلاله استعدادهم لبذل النفس متى ما تطلب أمر الدفاع عن المبادئ.

ان ظاهرة "الدم العاشورائي" سواء الحقيقي أو الرمزي منه ـ الحقيقي هو ذلك المراق في واقعة الطف والرمزي هو الذي تقدمه شعائر التطبير- هي ظاهرة تميزت بها هذه الواقعة وأكدت كذلك على بقائها.

فما يفعله "الشعائريون" في مراسم التطبير يفوق التصور، إذ حالة التضحية والفداء تكون السمة الأساس في هذه الشعيرة، "فالشعائري" المتطبر يرتدي كفن الموت يوشح به جسمه جميعا ويحلق رأسه، وهي خاصية تعني تسربل الموت عند ارتداء الكفن، وإزالة مظاهر الدنيا وتركها عند حلاقة رأسه، ثم يحمل سيفا أو مدية يضرب بها رأسه وهو في لحظة المواساة التي يستشعرها عند قرع الطبول المؤذنة ببدء الشعيرة التضحوية، بعد ذلك سنجد نزف الدماء يتتابع من أولئك الشعائريين الذين يشاركون في موكب التطبير، وهم يهتفون بشعارات تتصاعد في نبراتها حالات التهيج والاندفاع نحو التضحية والفداء «حيدر» «حيدر» وعلى إيقاعات تشبه إيقاعات الحروب.

هذه الظاهرة عنفت الروح الانهزامية لدى الجميع وأدخلتها في حظيرة التضحية سواء أولئك الشعائريون أو غيرهم الذين يشاركون في مشاهدة المظهر التضحوي والذي يحفز النفوس على الفداء لكنه بمراتب متفاوتة تتبع حالة التعلق بهذه الشعيرة قوة وضعفا.

ان ظاهرة الدم جعلت عاشوراء تنمو في الذهن العام وتكبر في الذاكرة الإنسانية، كما ان هذه الظاهرة حافظت على مشروعية الواقعة واحتفظت بسلامة القضية وحفظتها من المصادرات التي تربصت بها وأبعدتها عن محاولات التحريف.

ذكر لي المرحوم السيد كاظم الشربي وكان رجلا فاضلا عالما حافظا لوقائع تاريخية كثيرة ان الفاضل الشربياني كان من العلماء العظام الذين فرضوا احترامهم ومنزلتهم حتى على الدولة العثمانية، وكانت الدولة العثمانية تنفذ له خمساً وأربعين كلمة اي (أمراً) في السنة بأمر السلطان العثماني، وقد كان الشيخ جالسا في الحضرة الحسينية الشريفة في يوم العاشر من محرم الحرام، فلما رآه مدير الشَرِطة أقبل عليه وسلم وأبدى له احترامه، وكانت آنذاك مواكب التطبير تدخل الى الصحن الشريف ومستمرة في توافدها على الصحن آنذاك، فقال المسؤول العثماني: يا شيخ أهذا جائز أم لا؟ فقال له الشيخ الشربياني: هذا لا يجوز – يشير إلى مواكب التطبير وكانت إجابته على سبيل التنزل– فقال المسؤول: لم لا تمنعون إذن؟ فقال الشيخ: نخاف، قال المسؤول: كيف تخافون ونحن معكم؟ فقال الشيخ: نخاف منكم، قال: كيف؟ قال الشيخ: إن يوم الغدير حضر فيه أكثر من مئة وعشرين ألفاً من المسلمين – وهو اقل الروايات– وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشهدهم على ان علي بن أبي طالب هو وصيه وخليفته من بعده وشهد على ذلك المسلمون جميعا ثم أنكرتموه انتم وقلتم: لم نصدق ذلك، وواقعة عاشوراء لو لم تكن فيها هذه الدماء في كل عام تذكركم بشهادة الحسين عليه السلام ودمائه النازفة لأنكرتموها كذلك، وقلتم: إن الحسين مات موتة طبيعية وأنكرتم ما جرى في واقعة راح ضحيتها الحسين وأهل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار، لكن هذا الدم بقي شاهدا يذكركم بما جرت من دماء في عاشوراء. فسكت المسؤول العثماني ولم يَحر جوابا. كان الجواب عنيفا بعنف الدم العاشورائي الذي أثبت قضية الفداء.

٢- ظاهرة لطم الصدور

ويحق لنا أن نسجلها هنا ظاهرة، وهي تتقرر من حالة الجزع الذي يعبر عنه المفجوع، اذ الحزين لا يكتفي بما تعتمله روحه من الحزن ما لم يترجمه إلى مشاهدة عملية، إذ تتّابع ضربات يده على صدره ضمن ايقاعات حزائنية لكنها شعائرية، أي إيقاعات هادفة تُترجم تعاطي هذا الشعائري مع القضية الحسينية، وهي ظاهرة تكون الشعائرية فيها متمثلة بالحالة التظاهرية، والذي يرفع من مستوى المشاركة الشعائرية هذه إمكانية مشاركة الأكثر في إحياء التظاهرة وكونها تترجم تطلعات المشاركين بشكل هادف يستشعر من خلاله المشارك انه ينقل مشاعره الى الخارج عن طريق هذه الضربات الإيقاعية المبدعة دائما والتي تنمي قابلية التضحية وشعور الفداء لدى الشعائريين المشاركين.

٣- ظاهرة البكاء الحسيني أو حالة الاستيحاء الشعائري للذات

وهو شبيه بحالة الإيحاء الايجابي الذي يعرفه علماء النفس بأنه: « الايحاء من خلال العبارات والأقوال والأفعال التي تحدث تأثيرا قويا في سلوك الإنسان وتصرفاته، وتترك أثرا ايجابيا في النفس»[(١)].

وهنا يمكننا استعارة المصطلح بعد تصريفه إلى مادة «الاستفعال»؛ اذ الايحاء لعله يكون من طرف واحد، لكن البكاء سيكون من ايحاء يشارك فيه أكثر من طرف يستفعل فيه المشارك فتتهيج لديه مشاعر الحزن الكامن في دواخل النفس ويدعوه للبكاء الذي يعبر عن وجدانياته المكبوتة والمستثارة بقصيدةٍ حزينة أو كلمات عاطفية تثير لديه صوراً عاطفية تتلاحق واحدة بعد الأخرى لتكون لديه حالة استسلام لمشاهدات الواقعة التاريخية الحسينية، وظاهرة البكاء هذه تستوحي مشاعر المشارك أو السامع للعزاء

---

(١) موسوعة علم النفس الدكتور اسعد رزوق: ٥٤.

لتثيرعنده الرغبة الشديدة في البكاء، وهي حالـة استـسلام نفـسي تـسقط فيـه الـنفس في بقعـة الحـزن لكنـه سـقوط ايجـابي، اي سـيرفع مـن حالـة القـوة الـشعائرية الـتي تدفعـه للمشاركة في تقويم النفس بشكلها الباحث عن الإبداع اي سـيكون البكـاء حالـة تقشُّع لهمٍ مثقلةٍ به النفس وستتعافى من خلال إلقاء هذه النتـوءات النفـسية المتـسببة مـن حالـة إجهاد نفسي يثقل النفس من الإبداع فإذا ألقت النفس هذه القيـود النفـسية مـن خـلال البكاء نشطت إلى الإبداع وقويت في عملها بعد ذلك.

هذه الظاهرة ميزت اتباع أهل البيت عليهم السلام «بالبكائية الشعائرية»، فالبكاء الذي تحدثه الوجدانيات الشعائرية لتستثير لديهم حالة البكاء وتقوي حالة الإبداع الذي يكون منشؤه غالبا من استرداد الحق المغتصب أو إثارة الرغبة في أخذ الثأر والانتقام من الظالم الذي سبب هذه المأساة الكربلائية وكل من سار على خطه وانتهج منهجه.

اذن ظاهرة البكـاء مـصدر قـوة لأتبـاع أهـل البيـت وكـل مـن دخـل في المنظومـة الـشعائرية الـتي حقـق أهـدافها أهـل البيـت عـليهم الـسلام وأمـروا شـيعتهم بالتزامهـا ومراعاتها.

ثانيا: ظاهرة التضحية الشعائرية على المستوى الاجتماعي

تبرز لدينا ظاهرة اجتماعية شعائرية مثيرة يستبطنها «العرف الشعائري» واقصد بالعرف الشعائري هو ما تعارف عند الشعائريين من مبتنيات عرفية وممارسات تنشئها الحالة الشعائرية الاجتماعية، فتكون محترمة وذات أثر فعال في تنمية الشخصية الاجتماعية وعلاقاتها داخلها أو مع الآخر كذلك.

فأهم ما يميز هذه الشعائر على المستوى الاجتماعي:

ظاهرة الإيثار: وهي الظاهرة الأكثر شيوعا في أوساط الشعائر الحسينية التي يتميز بها اتباعها.. فالمشاهد لمواكب المشاة الى كربلاء سيجد حالة إنسانية تهيمن على السلوك العام للشعائريين الذين جندوا أنفسهم لخدمة المشاركين في مسيرة المشاة الى كربلاء. ان حالة «الأنا» تترجل بشكل لم يسبقه مثيل ولعلها تُنتزع إلى حد لتكون في حالة الـ«نحن» وهي تلغي الامتيازات الفردية وتتصاعد وتائر الجماعية السلوكية والشعورية التي تحكم المجموعة الشعائرية. ان حالات الايثار لا يمكن رصدها جميعا الا اننا يمكن ان نرصد ما يكون امامنا: فمثلا تحاول المجموعة المؤسسة لموكب ما ان تتنافس في تقديم أفضل الخدمات للزائرين وتتعدد هذه الخدمات بين:

أ- تقديم الطعام وبأشكاله المختلفة. ب- تقديم الماء.

ج- تقديم الشاي. د- الخدمة الصحية.

ويقوم جميع المشاركين بالسعي في إنجاح عمل الموكب الخدمي الذي يفتخر بتميز خدماته عن غيره. إن الحافز الغيبي هو الذي سيتحكم في هذه الظاهرة وغيرها وسنشير الى ذلك تباعا.

ثالثا: الظاهرة السلوكية الشعائرية

في خضم ما تشهده هذه المظاهر الشعائرية من عدم الانتساب لأية منظومة قانونية وضعية، اي عدم تقنينها بمواد قانونية معلنة، إلا ان هذه المظاهر اتخذت نهجا سلوكيا أخلاقيا جماعيا أو فرديا؛ وبمعنى آخر تقنّن هذه المحافل الشعائرية قانونية مرتكزة وانضباط ضمني يدخل ضمن سياقات العرف الشعائري، فمن خلال التنظيم الاعتباطي لهذه الشعائريات ظهرت أخلاقية تكاد تفتقرها أعظم التنظيمات المؤسساتية التي تحكمها لوائح قانونية، وهنا لابد ان نرصد بعض هذه السلوكيات التي تميزت بها الشعائريات الحسينية بشكلها الإنساني البديع :

١- التكافل الاجتماعي

وهي ظاهرة تميزت بها الحركة الشعائرية، اذ تنامي الروح التكافلية لدى المجتمع الشعائري يميز أفراده بحالة الشعور بالمسؤولية اتجاه الآخرين المشاركين في إحياء الشعيرة الحسينية، فهم لا يتوانون عن توفير كل احتياجات الجموع الغفيرة بما يكفل لها حالة مواصلة الشعائر وتذليل كل عقبات الموانع لها حتى لو تطلب الأمر بذل الأنفس، فالمشاهد لشعائر الأربعين الحسيني يجد ان الشعائريين ينتظمون ضمن مجاميع مسلحة لحراسة الزائرين حفاظا على أرواحهم ويسهرون الى الصباح من أجل توفير الحماية لهم ورعايتهم مع علمهم بإمكانية استهدافهم على أيدي الأعداء الذين يتربصون بالشعائر

والمشاركين فيها، فكأن هؤلاء الشعائريين يقعون على موت محتمل دون تردد من اجل متابعة المسيرة الشعائرية بسلام.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يوفر الشعائريون كل انواع الأكل التي يمكن ان يستذوقها الزائر فضلا عن أسباب الراحة الممكن توفرها من تدفئة أو تبريد تبعا للأجواء حينئذ.

٢- ظاهرة السخاء الجماعي أو الفردي

لابد من التنويه على ظاهرة تبرز من خلال الممارسات الشعائرية وتغلب على الممارسين للشعائر بشكل يتميزون به، وهي ظاهرة السخاء الذي يتميز به الفرد أو الجماعة الشعائرية، اذ ستكون حالة العطاء والبذل المادي في أوجه لدى هؤلاء، فهم يبذلون دون حساب باعتقاد ان قضية الإمام الحسين عليه السلام كانت موقوفة على العطاء وموصوفة بالبذل، وهو عطاء الأنفس وبذلها من اجل تحقيق المبدأ والغاية السامية التي من اجلها سعى الإمام الحسين عليه السلام، ولما كان الشعائريون يعملون على المواساة للإمام الشهيد فان حالة السخاء تتضخم لديهم بشكل ملفت للنظر مع الاعتقاد ان هذا العطاء سيعوض بشكله الغيبي الذي يلمسه الباذل، وبالفعل فقد وقفنا على حالات يكون التعويض المادي للباذل بالأضعاف المضاعفة وبشكل تعجز معه الحسابات المادية المتوفرة لدى الباذلين وانهم يشعرون بلذة صحة منهجهم هذا الذي يكون التسديد الغيبي من ورائه. ان ظاهرة العطاء والبذل تتضخم بشكل غير طبيعي حتى انك لتجد الشخص غير المعطاء أو الذي يتصف بالبخل بمفهومه السلوكي مثلا نجد حالة العطاء والبذل تتصاعد وتائرها بشكل ملحوظ لدى تعاطيه مع قضية الإمام الحسين عليه السلام، فالبخيل سيكون كريما بل في أقصى غايات الكرم والعطاء، والكريم سيبحث عن طرق أخرى لزيادة حصيلة صفته الايجابية، لذا فان إحصائيات

غير معلنة ترصد حالات البذل والعطاء تصل الى ترليون دولار صُرفت خلال محرم ٢٠٠٩ وهو رقم مهول حقا، وهذه الإحصائيات السرية ترصدها دوائر عالمية امريكية وغيرها لمتابعة المجريات الشعائرية وهم ليسوا في صدد نشرها واعلانها بقدر ما هم في صدد مراقبتها كظاهرة تثير الانتباه وبرنامج تنظيمي لكنه على المستوى الشعبي.

ان ظاهرة السخاء نُظمت بشكل مثير واتخذت أطوارا وحالات توفيرية، اي العمل على توفير الأموال لإنجاح الشعائر من خلال ايجاد صناديق توفير اهلية يضعها الشعائريون في بيوتهم أو محالهم يرجون منها البركة، ويداوم الناس على ايداع تبرعاتهم في هذا الصندوق حتى قرب محرم الحرام يُفتح هذا الصندوق ليسد نفقات الموكب المخصص من اجله التوفير، واستمرت هذه الحالة حتى وقت قريب فبرزت الدفعات المليونية التي يقدمها المتمولون من اجل إحياء هذه الشعائر وإدامتها وباتت صناديق التوفير في اكثرها تشير الى رمزية الارتباط بالشعائر من قبل الافراد فضلا عن طلب البركة المتوقعة بسبب هذا الصندوق.

٣- ظاهرة البناء الثقافي

وهي ظاهرة شاهدناها منذ ان عرفنا ان المجالس الحسينية المنعقدة تتكفل بتثقيف الاتباع على المنحى التاريخي الذي رواه أهل البيت عليهم السلام، وليس التاريخ الذي تبنت السلطة تأسيس ثقافته، ففرق بين التاريخين المقروءين، تاريخ تكتبه أقلام السلطة بواسطة رجالاتها، وآخر هو التاريخ الواقعي الذي روى احداثه أهل البيت أو ادخلوه ضمن انسيابية أتقنها اتباعهم وثقفوا عليها أجيالهم وهي مغايرة تماما لتلك الأطروحة التاريخية السلطوية، ولكي يحفظ أهل البيت عليهم السلام شيعتهم من ثقافات السلطة حصنوا ثقافة الاتباع بالمجالس المنعقدة لذكر الإمام الحسين عليه السلام وعزلوهم عن ثقافة السلطة، حتى صارت ثقافة السلطة غير ثقافة الاتباع اي الذين انضموا الى ثقافة

أهل البيت عليهم السلام وفكرهم، وبقيت هذه الثقافة مغايرة تماما لثقافة السلطة، ولابد لقنوات التثقيف لدى شيعة اهل البيت عليهم السلام ان تتنامى بشكلها المطرد من دون التأثر بثقافة السلطة، فكانت القنوات الشعائرية أهم ما لدى هؤلاء الشعائريين الذين باتوا ينخرطون تحت المنبر الحسيني بدافع المواساة للإمام الحسين عليه السلام ولغرض الحصول على الثواب الأخروي وكون الحضور تحت المنبر يعني الثبات على المبدأ وهو احد صور الثبات للإمام الشهيد، إلا ان ذلك الشعور يخالطه لون من التثقيف الذي بات يتنامى يوما بعد آخر، وشعر اتباع أهل البيت عليهم السلام بضرورة الانضواء تحت هذا المنبر والتمسك به والالتزام بمراسمه، وذلك؛ لكون المنبر الحسيني هو رسالة صوتية لم ينقطع بثها منذ آلاف السنين تقود اتباع اهل البيت عليهم السلام بما ينسجم والوضع المعاش، وغدت هذه المجالس تدفع باتجاه التثقيف على أطروحة أهل البيت عليهم السلام وبرزت ظاهرة الثقافة تتعاظم يوما بعد آخر وكان لهؤلاء الشعائريين النصيب الكبير في التزود بهذه الثقافة، حتى اننا أدركنا بعض الأميين الذين لم يحسنوا القراءة والكتابة يحملون ثقافة تاريخية متميزة ويدركون مجريات الحدث التاريخي بما ينسجم وفكر أهل البيت عليهم السلام ويحق لنا أن نشير الى ان الحركة الشعائرية أحدثت تحولا ثقافيا لدى الشعائريين بشكل يضمن فكر أهل البيت عليهم السلام محفوظا دون تحريف.

٤- ظاهرة السلام والتعايش

يعد مبدأ السلام من أهم المبادئ التي تعمل على بناء المجتمع الرشيد وتنهض بالمجتمع الكامل الى ارقى مستوياته، ولعل ما يميز المجتمع الشعائري هو توفره على حالة السلام كمبدأ يتعامل من خلاله مع نفسه والآخرين كذلك.

ان آفاق السلام والمحبة تأخذ القسط الأكبر من الجو الشعائري العام الذي يتميز به جميع المشاركين، فلو أخذنا أربعينية الحسين عليه السلام وهي عينة صالحة لأكثر

الظواهر ـ كون هذه المناسبة يجتمع فيها أكثر من خمسة عشر مليون مشارك وهي نسبة هائلة تعطي نتائج إحصائية خطيرة ـ فلو أخذنا هذه المناسبة فإننا نرصد خُلقا شعائريا بديعا يسود الجو العام، وتتضافر جهود الجميع في إقصاء كل مظاهر «الأنا» لتبرز روح الـ«نحن» في هذا المجتمع وهو ما يساعد على خلق روح التفاهم والسعي من اجل إنجاح البرنامج الشعائري الذي يشارك فيه الجميع.

ان حالة الثقة التي تهيمن على الأجواء تبعد الانهزامية المسببة للخلافات، فان العينة الأربعينية ستحظى بالاهتمام من لدن الجميع وهم يشاهدون الملايين تنساب من خلال برنامج مرسوم وهدف موحد هو الوصول إلى كربلاء وإنجاح المهمة الشعائرية، فمن خلال مشاركاتنا في سنين عدة لم نجد ولو على مستوى الكلمة خلافا أو صراعا ما، بل وجدنا الانسيابية المليونية يدعوها هدفها المشترك إلى تجاوز كل الخلافات الفردية أو الجماعية وإظهار المجمعات الشعائرية على أنها مجمعات سلام، تنشد المحبة وتدعو الى التسامح وهو امر يثير التساؤل، ما الذي دعا هذه الملايين ان تتجاوز كل خلافاتها على الرغم من عدم اتفاقها الثقافي أو القومي أو حتى المناطقي الذي غالبا ما يكون فاصلا بين المستويات الثقافية أو الفكرية وتتعدى صراعاتها وخلافاتها؟والذي نراه من خلال الجو العام الذي يعيشه المشاركون بكل توجهاتهم أنهم محكومون بأخلاقية الجماعة الشعائرية التي يربطها الهدف الاسمى والغاية الأنبل للوصول الى مواساة الإمام الحسين عليه السلام وهذه المواساة تدفعهم بالشعور بان المسؤولية تكافلية موزعة على الجميع وان الجميع مخاطبون بالمسؤولية على وجه العين دون ان يتخلى احد عن هذه المسؤولية وان كانت تشتد وتضعف تبعا للمهمة التي يتكفلها الأشخاص وبهذا فقد برزت لدينا ظاهرة من أهم الظواهر التي يمكن رصدها في الحركة الشعائرية الحسينية.

٥- ظاهرة القيادة الذاتية

تتصف الجماهير الشعائرية بأنها لا تمتلك القيادة التي من خلالها تنتظم ضمن مجاميع ميدانية تواصل مسيرتها وتنفذ مهمتها، فالمجاميع هذه تعتمد على القيادة الذاتية التي تبرز من خلال الممارسة الشعائرية خصوصا تلك المسيرات المليونية الزاحفة نحو كربلاء إبان الأربعين الحسيني المليوني الذي لم يشهد التاريخ زحفا مثله.

من المعلوم ان الحشود المليونية سواء كانت شعائرية دينية، اومسيرات سياسية، أو تظاهرات شعبية كل ذلك يحتاج الى قيادة تعمل على تجمعاتهم وتوجههم ضمن انسيابية موحدة، علما اننا نجد أنّ اغلب هذه التظاهرات يشوبها اللغط الجماعي والإرباك التنظيمي وهي من حالاتها الطبيعية، في حين نقف على المسيرة المليونية الزاحفة الى كربلاء والتي تخلو من اي قيادة كانت، لتنساب ضمن برنامج دقيق لا يختلف عنها الجميع ليظهر كفاءة تنظيمية ذاتية غير مسبوقة وهذا ما أدهش الجميع حقا.

٦- ظاهرة العبادة الشعائرية

تتمتن الظاهرة العبادية لدى الشعائريين بشكل يترسخ لديهم الحس العبادي وينمو في نفوسهم، بمعنى تكون ظاهرة التوجه الى الله تعالى في أوجها وتتصاعد الرغبة في الخدمة الإلهية التي هي اصل الخدمة الحسينية ليستوحي من خلالها الشعائري روحه العبادية والانفكاك عن الدنيا والتوجه الى الإذعان المهيمن على روحه وسلوكه، ومن هنا يجد الشعائريون ان فرصةً للعبادة توفرت لديهم ولا يمكن تفويتها.

ان حالة الإذعان والشعور بالخدمة الحسينية يولدان الانقطاع الى المطلق، وتنمو في روح المشارك حالة العبودية لله تعالى مستشرفا روح الاذعان الحسينية التي توفر عليها شهداء كربلاء وانقطاعهم الى الله تعالى، فان مسحةً نورانية تشرق

على روح المشاركين الذين تعلقوا بهؤلاء الشهداء وانقطعوا بكلهم الى الله تعالى، ويجد الشعائري ان روح الشهيد الكربلائي تهيمن عليه وتأخذه إلى مساقات تعبوية تعبدية في صلاة الجماعة وهي أبرزها أو التحفيز للالتزام بالصلاة في حال يكون المكلف قد تراجعت لديه حالة الالتزام والمحافظة على أوقات الصلاة، فنجد لدى هؤلاء تتصاعد لديهم الرغبة في الالتزام بالصلاة، أو تتضاعف الرغبة بالصلاة لدى المحافظين عليها، قد وقفت كثيرا عند صلاة الليل يؤديها جموع من المشاركين في الشعائر الحسينية وهو امر لم نعهده في مناسبات أخرى، أو صلاة الجماعة ينتظم بها العشرات في صفوف متعبة من المشاركين، وشاهدتهم يؤدونها وكأنها من ضمن متطلبات الشعيرة التي شاركوا فيها، مما دفعني للتفكير الى ان الشعائر الحسينية مطلقا تدفع المشاركين فيها الى اشتداد حالة العبودية والخضوع لله تعالى، ومن هنا سينطلق بعض من لم يجد فرصة للمحافظة على صلاته ان ينخرط في الصف العبادي الشعائري فكفلته الشعائر الحسينية، اي ان حصيلة المشاركة في الشعيرة هي تمتين العلاقة بين العبد وربه بعد ان فُتحت لديه آفاق عبادية شعائرية، اذن لحظة الارتباط بالله ستقوى في هذه المشاركات الشعائرية بشكل عنيف تترك في نفس المشارك حالة الالتزام العبادي بأقوى صورها، فهو اما ان يبتدئ من نقطة الانطلاق العبادي الشعائري للعبادة والتوجه الى الله تعالى واما ان هذه الشعائر تركت لديه لحظة المشاركة العبادية في نفسه انشدادا قويا يدفعه في يوم ما الى الالتزام بصلاته بشكل منتظم، هذه الظاهرة العبادية الشعائرية هي رد واضح على كل من يدعي ان بعض المشاركين لا يعرفون التوجه الى الصلاة ايام مشاركاتهم وهو فهم خاطئ بل ظالم لهذه الشعيرة وللمشاركين فيها، وكم سمعنا مثل هذه الجدالات السيئة غير المجدية والتي تنبع من اللامسؤولية الدينية التي تأخذ بعضهم الى متاهات الظلم واتهام الآخرين بغير حق.

٧- ظاهرة المرأة الشعائرية

هكذا يمكن ان نعبر عن حالة المسؤولية التي تضطلع بها المرأة في القضية الحسينية، سواء المرأة التاريخية - اي تلك المشاركة في واقعة الطف- أو المرأة الحاضرة – اي تلك المرأة المعاصرة التي تشارك في الشعائر الحسينية – ففي المسيرة العاشورائية برزت ظاهرة المرأة، وكون المرأة ظاهرة لأنها أثبتت دورها الاستثنائي إلا انه طبيعي نسبة الى القانون الإسلامي والتعاليم الشرعية في تكريم المرأة والتأكيد على مكانتها، غير ان ذلك لا يمكن إحرازه ويكاد يكون قد ألغيت هذه القاعدة الإسلامية وصار التوجه الى نبذ المرأة وإلغائها سائدا في كل الاوساط من ضمنها الوسط الاسلامي الذي لم يحسن تطبيق قاعدة تكريم المرأة، إلا ان عاشوراء أبرزت المرأة على أنها ظاهرة، وكون المرأة توصف بالظاهرة فهو متقدم في مجال الفكر الإسلامي الذي يبحث منذ القدم عمن يصون كرامة المرأة ويحفظ قدرها ويعترف بقدرتها الخلاقة على تحمل المسؤولية وستكون المنظومة الشعائرية متكفلة في هذا المجال، اذ تأخذ المرأة دورها الشعائري وتحفظ هويتها الإنسانية فيه وتعمل على إمكانية إثبات مؤهلاتها كذلك.

ان ظاهرة أهلية المرأة الشعائرية اتخذت اشكالا عدة منها:

أ- استقلالية المرأة بإقامة الشعائر الحسينية، وأثبتت هذه المجالس النسوية إمكانيتها في تثقيف المرأة على كل المستويات واهم مستوى هو ثقافة الواقعة التي غدت جزءا من ثقافة المرأة الشعائرية، وإذا أضفنا هذا الحاضر الى ذلك الماضي نجد ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد نوه بهذه المشاركات النسوية، لأنها ظاهرة مهمة تدخل في مواساتهم (عليهم السلام) ومعنى ذلك ان هذه المواساة ستدخل ضمن الإعلان عن مظلوميتهم وما جرى عليهم، حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه لفاطمة عليها السلام ليهوِّن عليها المصاب:

«ان ولدك سيقتل في زمان خال عني وعنك وعن ابيه وعن اخيه قالت عليها السلام ومن سيبكي عليه؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله سيخلق لنا شيعة رجالهم يبكون على رجالنا ونساؤهم يبكين على نسائنا».

وبقيت حالة الأهلية مرتكزة في نفوس الشعائريين رغم تعدد الثقافات الاجتماعية، اي حاول الشعائريون القفز على الموروث الاجتماعي في التعامل مع المرأة عند تعاطيها الشعيرة وتبقى المرأة الشعائرية محفوظة الهوية مستقلة الذات، وبمعنى آخر فان تحرر المرأة بجانبها الشعائري يدفعنا الى القول بان فلسفة الشعائر حفظت للمرأة تحررها، واستقلت بذاتها مهما كان المجتمع مجتمعا متزمتا في تعامله مع المرأة، اي ان "ذكورية المجتمع" لم تقف حائلا في "أنثوية الممارسة الشعائرية" وبقيت المرأة تشارك الرجل في اظهار المشاعر وتقدير الموقف، ولعمري لقد سبق المجتمع الشعائري كل المجتمعات المتحررة التي تنادي بحرية المرأة، أو تلك التي مارست الإخفاقات في حرية المرأة واستقلاليتها.

ب- بناء مجتمع نسوي شعائري يمارس جميع أنشطته الشعائرية وشخصيته القانونية في ظل تقنين شعائري ارتكازي، اي تحتفظ المجتمعات النسوية بقانونيتها الشرعية الذي أصّله النبي صلى الله عليه وآله وسلم «ونساؤهم تبكي على نسائنا»وهذا التأصيل أسس لمجتمع نسوي شعائري يمارس ثقافته بكل استقلال من دون ان تناله سطوة الرجل الذي تخلى عن هيمنته التقليدية، وأعطى للمرأة شخصيتها إذعانا منه بإمكانية ممارسة المرأة لشعائرها وضرورة ذلك تمتينا للهدف العقائدي الذي يعم الجميع، ولهذه المجتمعات النسوية تقاليدها الخاصة بها وشخصيتها المعترف بها عند مجتمع الرجل الذي يعمل على تعزيز ضرورة هذه المجتمعات النسوية، وهنا نجد أن الرجل تحرر من عقدة الهيمنة غير الطبيعية في تعامله مع المرأة واحتفظت المرأة بمجتمعها الشعائري الذي

من خلاله تبرز مواهبها الخطابية مثلا أو الثقافية أحيانا أو الفكرية في أحيان أخرى.

حـ-الاستقلالية المالية للمرأة في المجتمع الشعائري، وهنا لابد من التأكيد على ان المرأة لها الحق في القرار المالي بعد استقلاليتها المالية التي يبيح لها الرجل في التصرف لإنجاح هذه المهمة الشعائرية، فالمرأة التي تفقد شخصيتها المالية ستظهرها في الممارسات الشعائرية، فالمجلس النسوي المقام يدعم بتبرعات مالية مختلفة وتكون على اساس:

١- مالية المرأة المستقلة والتي تحتفظ بحقها المالي واستقلاليته.

٢- منح الرجل مالا لدعم المشروع الشعائري لزوجته وهنا تتصرف المرأة بكامل حريتها المالية.

٣- التبرعات التي يقدمها المتمولون لدعم مثل هذه المجالس السنوية.

٤- النذورات والهدايا من المشاركين لدعم المجلس وإقامته.

وهنا لابد من الإشارة الى ان ذلك ربما لم يتحقق في الحياة الزوجية كلها سوى ما تحققه ظاهرة المرأة الشعائرية، وهو تقدم على صعيد العلاقات الزوجية بل والاجتماعية كذلك.

ظاهرة الثورية

الظاهرة الحسينية تتصف بأنها ظاهرة الثورية وهي اهم الظواهر التي ميزت الظاهرة الحسينية وصارت عنوانا خاصا بها.

ان الثورية التي تعنينا هنا هي الاتجاه للإصلاح بكل دواعيه دون ان يكون هناك تخلّفٌ عن المبادئ والقيم المنشودة.

لقد رافقت الظاهرة الحسينية ظاهرة الثورة وعرفها الإمام الحسين عليه السلام بأنها الإصلاح وذلك من خلال بيانه الذي أذاعه على أصحابه قائلا:

«وإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما ولكن خرجت في طلب الإصلاح في امة جدي أريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي»[1].

واذا أخذنا مقطعا من خطبته الاولى في كربلاء نقف عند حيثيات تلك الثورة الإصلاحية التي بيّن جدواها من خلال ما عرضه من دواع تقتضي القيام بهذه الثورة فقال في خطبته:

«الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما دَرَّتْ معائشهم فإذا مُحِّصوا بالبلاء قَلَّ الدَّيانون.

ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله وقال:

---

(١) انظر: الوثائق الرسمية لثورة الامام الحسين عليه السلام للسيد عبد الكريم القزويني: ٢٢.

اما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وان الدنيا قد تغيرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الى الحق لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله، فاني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما»[١].

ولم أقف على خطبة تقدم فيها بعض الاغراض المهمة على المقدمة وهي الحمد والثناء لله تعالى، وكاني أجد ان الإمام الحسين عليه السلام أراد ان يؤكد ان الغرض الذي يفتتح به الخطبة يعني التوحيد في مساوقته للغرض، اذ تنبيه الأمة على الحكمة وحسن التصرف ونبذ المنكر ورفض الظالمين يعني هو الرجوع الى الله تعالى وطاعته وذلك يعني عبادته تعالى والذي يؤول الى توحيده، فقدم غرض ما به التوحيد على الحمد والثناء، فضلا عن اثارة انتباه السامع بان الغرض الذي افتتح به خطبته هو التوحيد الربوبي والافعالي الذي يطمح الإمام الحسين عليه السلام تربية الأمة عليه.

لقد أكدت فصول الخطبة الحسينية على هذا الحماس الإصلاحي الذي نوه به الإمام عليه السلام وأكده فأوضح ضرورة الالتجاء إلى التغيير الذي هو الإصلاح والذي هو الثورة أخيرا.

لقد تسربت هذه الثورية الإصلاحية إلى الأمة العاكفة على الاستسلام والخنوع للحاكم، واشتعلت جذوة التغيير في وجدانها فلم تنفك عن التغيير والمطالبة به ثوريا، وهذا ما يفسر لنا ولادة الثورات الإصلاحية بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام. اي خلفت ثورة الإمام في النفوس دواعي الثورة وتجذرت في مفاهيمها ضرورة الإصلاح فهي ضدّ الظلم أبدا، ولا تدع أحداً يبتز حقوقها منذ عرفت الحسين ثائرا ثم شهيدا.

---

(١) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم.

لقد منحت ثورة الإمام الحسين عليه السلام قسطا وافرا من الثورية لأتباعه ومريديه، وتدفقت لديهم دماء الثورة في مراجل نفوسهم تدعوهم للتغيير الدائم، لذا تجد أن الشعائرية الحسينية تضخ للمشاركين ديمومة الثورة وذلك من خلال مفاهيمها التي باتت متلبسة في كل تحركاتهم وسكناتهم، فالثورة الحسينية ألهبت المشاعر ولابد من استمرارية هذا الشعور وحيويته، اي لابد ان يعيش شعور الثورة حيا في نفوس الأمة ووجدانها ولابد من آلية تديم التواصل بين الثورة وبين أتباعها، فكانت الشعائر الوسيلة المهمة في حركية هذه المبادئ لدى شعور الأمة وإحساسها، لذا فإننا نجد الشعائريين يمتازون بالثورة كظاهرة تميزهم عن غيرهم، وقد عاصرنا بعض فصول هذا التوهج الثوري الذي دفع بالشعائريين إلى الثورة كما حدث ذلك في صفر من عام ١٩٧٧ والذي برهن على ان الشعائريين يحملون الثورة في دمائهم فقد اعترضت في الثامن عشر من صفر قوة عسكرية تابعة للنظام البعثي الذي كان يحكم العراق في عام ١٩٧٧ وطلبت من المسيرة المتوجهة الى كربلاء التفرق وايقاف مسيرهم وإلغاء هذه الشعيرة بالتهديد، ولم يستجب هؤلاء الشعائريون لنداءات القوة العسكرية وتهديداتها بل واصلوا الإصرار للوصول إلى كربلاء وتيقنوا ان الرضوخ لمطالب النظام يعني إلغاء المراسم العاشورائية بكل تفاصيلها، فآثروا الوقوف ضد هذا الصخب من التهديد وثاروا بوجه القوة بترديد شعارات الرفض والتحدي وبدأت المواجهة غير المتكافئة بين القوة العسكرية المزودة بالدبابات والأسلحة الفتاكة وبين الشعائريين العزل حتى قتل منهم الكثير، وألقوا القبض على الباقين، وحكموا بالإعدام من دون محاكمة عادلة، وبقيت هذه الحادثة تشير إلى تلك الحماسة الثورية التي عبّدت طريق كربلاء بدماء التضحية والعطاء.

اذن فالظاهرة الثورية ظاهرة كربلائية وان لم تنتسب، اي الثورية هذه تعتمل في النفوس فهي وراثة كربلائية وان لم يكن بين هذه الثورية وبين أصحابها علقة الانتماء

الكربلائي. وكم قرأنا عن عظماء ثوريين تأثروا بكربلاء ومجَّدوها بكلمات خالدة معروفة لدى الجميع، كما هو الحال في محرر الهند المهاتما غاندي أو ما صرح به نابليون بونابرت القائد الفرنسي حينما خاطب أخاه الذي قرر الرجوع من بعض معاركه قال: «ليتك كأخ الحسين.» اي أراد تذكيره بوفاء أبي الفضل العباس ووقفته الشجاعة مع أخيه الحسين.

اذن فالثورية ظاهرة حسينية لا تتخلف عن المشهد المعاش والذي يحمل كل جزء منه كربلاء بفصولها وجزئياتها.

ظاهرة الألم

وهي إفراز حقيقي لواقعة الطف الدامية التي تحمّلتها الذاكرة الشيعية لعقود متطاولة حتى غدت هذه الذاكرة ملتصقة بانبعاثات دامية توحيها واقعة كربلاء، ولهذه الظاهرة تداعياتها المؤلمة التي حفلت بها الروح الشيعية وأودعت فيها البحث عن ذاتها المغيبة والمعذبة بواقعة الطف، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الشعور يخلق وجدانا من العزة والتمايل نحو"الثار الايجابي" و"الانتقام المتكامل"، واقصد من ذلك ان الثار الذي تبحث عنه الروح الشيعية المتألمة هو الثار للارتفاع بها الى معارج الكمال والرقي، فهي تثار لوجودها المغيب بين مطاوي سنين ضياع سعت فيها ثقافة الحاكم وجعلت من الشخصية الشيعية شخصية محكومة دائما مهما بلغت التفوق والتقدم على الجهة الحاكمة، لأنها الغالبة دائما بالقهر والقوة، والشخصية الشيعية هي المحكومة بالمثل التي لا يمكن ان تفارقها لحظة ولا تنفك عنها أبدا، وظاهرة الألم الكربلائي المخبوء في النفس الشيعية يدفعها دائما للانتصار والبحث عن الذات، ونقصد بـ"الانتقام المتكامل" بأنها عملية استعادة الذات والهوية بطرق التكامل الذاتي للنفس وهو ما يعد متكاملا من المنهج المضاد وتحفيز الذات على التعالي إلى ما يمكن من خلاله تحقيق الأفضل، لذا فإننا نجد ان ظاهرة الألم ايجابية بكل نواحيها، فهي تخلق الإبداع وتوجد محفزات الطاقات الخلاقة والمبدعة التي تنتزع من الألم الساكن في النفس فيستل ما يحفزه على ايجاد الأكمل في كل شيء.

ان البكاء الذي عرف به شيعة أهل البيت عليهم السلام لإحياء شعيرة الإمام المظلوم تنبع من إحساس الباكي بالظلم وفداحة ما وقع من حيف على الإمام الشهيد، فتتعزز لديهم روح العمل على رفع الحيف الذي لحق بهم من الحاكم، والحاكم لا يعني المتسلط السياسي بالضرورة، بل حتى المتسلط الفكري والثقافي الذي يهيمن على المشهد العام والذي يجعل الآخر محكوما دائما؛ لذا تجد ان البكاء يخلق طاقة الإبداع ويتسامى إلى الرفض لكل منقصة من شأنها ان تسجل ظلما أو جورا، وهكذا يبقى البكاء حافزا لترويض النفس الجامحة وفي الوقت نفسه داعيا لصقلها عن كل شوائب الخنوع التي تدعو الى التكاسل ومن ثم الانصياع إلى الظالم.

هذه هي ظاهرة الألم تخلق أُمّة سوية في التفكير، خلاقة في السلوك، دائبة في العمل، مبدعة في القرار، ولا ننسى ان حالة البكاء بسبب الألم تعطي اطمئنانا اكبر للنفس فتجد النفوس الباكية قد تخلصت من عقدها بواسطة البكاء الذي يبعثه الألم، فالنفس الشيعية نفس متألمة، اي باكية وفي نفس الوقت مبدعة، خلاقة، سوية ثم هي مطمئنة تنشد الخير والإبداع.

ظاهرة الإيثار

لا نريد الآن ان نقرض للظاهرة الحسينية، بل نريد ان نؤرخ لها ونحن نعيش حيثياتها ووقائعها، ونرصد مشاهداتها الماثلة أمام التاريخ الذي لا يمكن له ان يكتب ويؤرخ لان الحادثة اكبر من التاريخ، وظرفه اقل من ان يستوعب تلك المشاهدات فصار مثلا راصدا للحوادث غير مستوعب لها، وفرق بين ان يرصد الحادثة فهي مجرد المشاهدة لا غير، وبين الاستيعاب لها وهو الوغول في أعماقها والوصول إلى مكنونها.

اننا نرصد ظاهرة مهمة عمت المشهد الكربلائي وكانت من ميزاته وحيثياته وهي ظاهرة الإيثار، ومعناها تقديم الغير على النفس، وان كانت للنفس خصوصية الحاجة والضرورة، وقوله تعالى بين هذا الاتجاه من الحالة النفسية التي تختص بها النفس وتمتاز بها فقال تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

وهذه الآية الكريمة كان مصداقها الحقيقي مشاهدات كربلاء التي ما فتأت تعطي المزيد من تداعيات الصورة الكربلائية وهي في أوج عطائها.

فالحسين بن علي عليهما السلام يعلن تحركه إلى كربلاء ويدعو أصحابه للرحيل معه لكن بشرط البذل دون غيره، والبذل لا يعني بذلا آخر غير بذل النفوس لذلك عزز بيانه بهذا القيد وهو بذل النفوس فقال:

«من كان باذلا فينا مهجته، وموطنا على لقاء اللّه تعالى نفسه، فليرحل معنا فاني راحل مصبحا إن شاء اللّه تعالى»[(١)].

وكان دواعي الحركة والخروج مع الإمام عليه السلام هو بذل النفس، وهو أقصى مصاديق الإيثار، وهنا نقف مع خطاب حسيني آخر نستجلي به حالة الإيثار بأروع صورها فقد أدرك الإمام عليه السلام ضرورة بيان تكليف كل واحد من المشاركين في كربلاء؛ ليوقفهم على مصائرهم ثم السماح لهم بالانصراف لئلا يلاقوا مصيره من القتل والبلاء، إلا ان أصحابه أدركوا كذلك ان تكليفهم يقتضي فداءه عليه السلام بأرواحهم، وانهم لم يكونوا أغلى منه وأعظم من وجوده، فقال عليه السلام لأتباعه:

ألا واني لأظن انه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا واني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعا في حل ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا.

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر:

لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟! لا أرانا اللّه ذلك أبدا.

بدأهم بهذا القول العباس بن علي (رضوان الله عليه) واتبعته الجماعة فتكلموا بمثله ونحوه.

قال الحسين عليه السلام:

يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، فاذهبوا انتم فقد أذنت لكم.

قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؟! يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا - خير الأعمام - ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب

---

(١) كشف الغمة للاردبيلي: ٢، ٣٣٢.

معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله ما نفعل ذلك، لكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: أنخلي عنك ولما نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقك؟ أما والله حتى اطعن في صدورهم برمحي، واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخليك حتى يعلم الله ان قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيك، والله لو علمت أني اقتل ثم أحيا ثم احرق ثم أحيا ثم أذرى يفعل ذلك بي سبعين مرة مافارقتك حتى ألقى حمامي»[١].

ولم ننس موقف سعيد بن عبد الله الحنفي الذي وقف يدرأُ سهام الموت عن الحسين عليه السلام وهو يسقط بين يديه مضرجا بدمه ليقول له: «وفيت يابن رسول الله؟» ولعلك تستمتع بهذه المشاهدة أو تهتز لهذا الموقف أو تخضع لهذا الإيثار وأنك لابد ان تذعن إلى أنّ ظاهرة الإيثار تسجل للجهد العاشورائي الذي ابرز هذه المواقف بأعظم تجلياتها، وإذا أردنا ان نحيل الإيثار إلى مسالة الانحياز لحب الخير المجبولة عليها النفس الإنسانية لتتكثر لدينا المواقف الايثارية وليس الموقف العاشورائي وحده الذي يمتاز بهذا الإيثار، فان مواقف أخرى اتضحت فيها سمة الإيثار كعلامة بارزة أغدقت عليها صفة نزعة الإحسان وحب الخير وسجلتها مواقف تحتفظ بها، إلا أن الإيثار العاشورائي ضرب مثلا أعلى في هذا المجال وأسهم في تعزيز رؤية العطاء ليهيمن على ملامح الموقف ويأخذ بالاعتبار البعد الإنساني للواقعة بكل تفاصيلها.

هذه الظاهرة الكربلائية ـ ظاهرة الإيثار- ضربت جذورها في أعماق الحالة الشيعية وتوارثت الروحية الشيعية صفة الإيثار حتى لنجد ان التاريخ يمتد بطوله لتؤسس السلوكيات الشيعية منهجيتها في الإيثار سواء كانت الثورية أي على الصعيد

(١) الارشاد للشيخ المفيد: ٢، ٩١.

الثوري الشيعي، إذ اننا نجد ان الثورة الشيعية احتفظت بمواقف الإيثار ولعب هذا الحس دوره في ترسيم هذه الحالة وتشخيصها كما في كل الثورات التي انتهجتِ الثار الحسيني في تعاطيها مع النظام ـ كما في ثورات الحسنيين؛ كثورتي محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم الإمام– مع التحفظ على بعض اطروحتيها، أو في ثورة زيد بن علي التي سبقت هاتين الثورتين والثورات الزيدية التي تلتها، أو في واقعة فخ وشهيدها الحسين بن علي، أو في الثورات التي هي على منوالها، فان الحس الحسيني في الإيثار كان الظاهرة الأكثر حضورا في تفاصيلها.

أو المنهجية السلوكية، وهو على صعيد الأخلاق، فان الخلق الشيعي قد تبنّى الإيثار كمسالة أساسية في توجهاته، ولعل قصص العلماء وغيرهم شهدت حالة الإيثار بكل عافيتها. او المنهجية الشعائرية، وهو صعيد الممارسة الشعائرية الذي تميزت به الشعائر الحسينية فكانت ظاهرة الايثار هي الأبرز من بين الظواهر التي تتحكم في هذا المضمار.

وهكذا تعد ظاهرة الإيثار الأكثر انتشارا في الحالة الشيعية وعلى جميع مستوياتها.

ظاهرة الشجاعة

ولعلها هي الظاهرة الأكثر ظهورا في الحدث الكربلائي، إذ الشجاعة هي الإقدام على اتخاذ القرار المناسب سواء كان في الحرب أو السلم، والقضية الكربلائية واجهت الكثير من المنعطفات في الحرب والسلم، ففي الحرب كان أمراً اظهر من أن يوضح، فإصرار الإمام عليه السلام على مواصلة الحرب مع أعدائه هو أقصى غايات الشجاعة، وكونه عليه السلام في غاية الاطمئنان ان هدفه حق وموقفه صدق، والشجاعة المتجلية في موقف الإمام الحسين إقدامه على مواجهة خصومه بدمه الشريف دون ادنى تردد،بل تأكيده على مواصلة المواجهة يدل على عمق شعوره بصدق قضيته، كان عليه السلام يقاتل ولا يضعف عن ذلك بل يقول:

«أما والله لا أجيبهم إلى شيء مما يريدون حتى ألقى الله عزوجل وانا مخضب بدمي»[1].

إذ الإنسان حينما يرى انه قد تفرد به خصومه تحدث لديه رغبة الاستسلام من اجل الحفاظ على بقائه وسلامة نفسه والنجاة بحشاشته، الا ان الإمام الحسين عليه السلام يجد ان ضرورة الإصرار هو مبدأ حركته وقضيته، فحالات الضعف لم توهن الإمام عليه السلام في مواصلة الجهاد، ودواعي الانهيار لم تدع النازف ان يستسلم لقدر الأوغاد، ومواقف الحرب لم تسنح للشهيد ان يركن الى الموت الذي هو راحته وفيه

(١) اللهوف: ٦٠١.

خلاصه من كل ما يريده خصومه به من التنكيل، بل وجد في الإصرار لذته على محاربة هؤلاء المهزومين دون ان يجدوا منه ولو لحظة واحدة قرار الاستسلام.

وفي علم الأخلاق يتقرر ان الشجاعة نزعة النفس حينما ترقى إلى المجد، وعزمة الكريم وهو يرى استباحة مبادئه على يد الطغاة، فتدفعه عزته للدفاع عن مبادئه، يقول ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق الشجاعة: «.. وذلك ان الشجاع خوفه من الأمر اشد من خوفه على الموت، ولذلك يختار الموت الجميل على الحياة القبيحة، على ان لذة الشجاع ليست تكون في مبادئ أموره، فان الأمور تكون مؤذية له لكنها تكون الأمور وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره، لا سيما اذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة في وحدانية الله عزوجل، والشريعة التي هي سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة.

فان مثل هذا إذا فكر في قصر مدة عمره، وعلم انه لا محال سيموت بعد أيام ثم كان محبا للجميل ثابتا على الرأي الصحيح، فهو لا محال يحامي عن دينه ويمنع العدو من استباحة حريمه، والتغلب على مدينته، ويأنف من الفرار ويعلم ان الجبان اذا اختار الفرار فإنما يستبقي شيئا هو لا محال فان زائل، وان تأخر أياما معدودة، ثم هو في هذه الحياة اليسيرة ممقوت مكدر الحياة بالذل وضروب الصفات، وهذه حال الشجاع مع قوى نفسه..»[1].

وهذا العقاد يقرظ اللحظات الأخيرة للإمام بقوله: «تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذي أثقله النزع وأوشك ان يجهل ما يسمع. فلم يخطر له ان يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحم الختام، ولم يخطر له انه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل ان ينال من القوم أهون مثال، ولم يحسب حساب شيء في تلك اللحظة العصيبة إلا ان يجاهد في القوم بما استطاع، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع..

(١) تهذب الاخلاق وتطهير الاعراق لابن مسكويه: ١٩٥.

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه، ونظر الى شيء يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح.. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شيء ولا يبالي من يصيب وما يصاب. فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة ان تمتد إليه، وانطلق هو يثخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم، فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان.. فكان هذا هو حقا الكرم والمجد في عسكر الحسين إلى الرمق الأخير»[1].

وإذا كان الكرم والمجد هما خُلُقَي الحسين عليه السلام فان الشجاعة هي ما يجمع هاتين الصفتين ويؤطرهما بإطار خلقه الكريم وسجيته الشريفة.

هذه هي ظاهرة حسينية ورثها آل بيت الحسين وأضافوا إليها أتباعهم وشيعتهم على هذا المنوال وبنفس السجية والعظمة.

فأتباع الحسين عليه السلام تميزوا بظاهرة الشجاعة كونها ظاهرة حسينية، حتى انك لا تجد شجاعة إلا حطت على صفحات هذا الماضي العتيد، ولا ترى إصرارا إلا وكان شيمة هذا الجمع الشديد في منازلة الشدائد ومكابرة الأعداء.

كانَ شيعة الحسين يمتازون بظاهرة الشجاعة، وما زالوا يتوارثونها حتى أن شعائرهم الحسينية يجللها شرف الإصرار وخاصية الشجاعة، وترتسم على حركاتهم الشعائرية هذه الظاهرة فكأنها اشتقت هذه الشعائر من تلك الظاهرة الحسينية الرائعة في تعاطيها، والأروع في تأصيلها؛ لأنها رمز الفناء وعلامة التضحية والفداء. فشعيرة اللطم على الصدور، والتطبير، وأمثالها ما هي إلا إقدام على الألم الذي هو بمعناه الآخر إقدام على الموت، فهل أشد من هذه المواقف واعتى من تلك النفوس؟! لأنها حزمت بالصبر وتحلّت بالشجاعة.

---

(١) الحسين أبو الشهداء: ٢٥٦.

ظاهرة الصبر

وهو الثبات على المكاره، واحتساب الشدائد من أجل الهدف المنظور أو غير المنظور.والهدف المنظور هو ذلك الهدف الحاضر أو القريب الذي يتحسسه الفرد ويتلمسه، والهدف غير المنظور ذلك الهدف الموعود به أو المتوقع حصوله أو القادم من وراء الغيب.

وإذا عرفنا الصبر هكذا فهذا يعني ان الصبر ظاهرة حسينية، فالحسين عليه السلام وآله وأصحابه كانوا يشعرون ان الصبر صفة المناجزة الكريمة التي يثبت فيها الابطال، ويعون انه مطيتهم للوصول الى المكرمات، وما فارقهم الصبر لحظة بل كان لهم رفيقا ينادمهم عند اشتداد الأهوال وتكالب المحن، فقد حقق الإمام الحسين عليه السلام غاية قصوى في الثبات؛ قدمها أطروحة لأصحابه الذين قاتلوا معه ولاتباعه الذين ساروا على منهجه، قال عليه السلام في بعض خطبه:

> رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين[١].

وهي التفاتة رائعة من الإمام الشهيد فقد أراد الإشارة إلى ما نزل بنا لم يكن لذنب بل لكرامة شاء الله تعالى ان يجعلها فينا عن طريق هذا البلاء الذي حل فينا، فان

---

(١) اللهوف: ٣٨.

رضى الله من رضانا، أي ما زلنا في عينه وتحت رعايته سبحانه، ولم تنقطع ألطافه ومنحه ومراضيه عنا، وإذا كان الأمر كذلك فان ما نزل بنا هو كرامة منه تعالى لنا ولابد من الصبر على ما ابتلينا به ليوفينا أجورنا وأجور الصابرين، فكان كلامه عليه السلام دفع دخل لما قد يتوهمه المتوهم بأن ما هم فيه من البلاء كان لذنب أو غضب، وكذلك ما ينزل في شيعتنا واتباعنا إنما هو لنيل كرامة الله ورضاه.

هذه الحالة غدت من مواصفات الحالة الشيعية التي امتازت بمقارعة الظالمين بما أبدته من الصبر والثبات حيال الظروف السياسية التي تكاتب عليها الأنظمة الحاكمة فكانت الحالة الشيعية، المعارضة الرسمية المرافقة لها في مسيرها طوال تاريخها الدموي الحاكم.. بل صارت ظاهرة الصبر هي العلامة الفارقة للوضع الشيعي التقليدي الذي ورثته الروح الشيعية وتقوضت جماعتها لجهود التنكيل والمطاردة التي عانتها من خلال سياسة البطش المنتهجة من قبل الأنظمة، وهكذا دأبت الثقافة الشيعية للعمل على تعزيز ظاهرة الصبر حتى تميزت بها وصارت إحدى مواصفاتها.

الظاهرة الثقافية

مما امتازت به الظاهرة الحسينية منذ انطلاقها الى يومنا هذا هي ظاهرة الثقافة التي عمت أوساط هذه الثورة المباركة بل غدت الثورة الحسينية مصدرا لتثقيف اتباعها وتعميمه إلى غيرهم حتى صارت هذه الثورة نافذة مهمة على الثقافات الاخرى تستقطبها بل لعلها تنظر لها في أحيان أخرى.

لقد عرفت الثورة الحسينية بأنها افتتحت مشروعها بالظاهرة الثقافية، أي سبق الظاهرة الثقافية للثورة شيء يثير الانتباه، فالتثقيف الذي سعت اليه الثورة قبل انطلاقها كانت قضية ملازمة لها، فالوقوف على جهود الإمام الحسين عليه السلام قبل ثورته المباركة أمر تدركه المصادر التاريخية التي وثقت للأحداث التي سبقت الثورة، فقد كانت بيعة يزيد في زمن معاوية امرا أثار استهجان العامة واستنكارهم نتيجة لما بذله الإمام الحسين عليه السلام من جهود للتثقيف على رفض هذه البيعة والتشهير بها، فقد كتب الإمام عليه السلام الى معاوية كتاب تأنيب ومما جاء فيه:

«ثم وليت ابنك وهو غلام يشرب الشراب ويلهو بالكلاب، فخنت أمانتك واخربت رعيتك، ولم تؤد نصيحة ربك، فكيف تولي على امة محمد من يشرب السكر؟ وشارب المسكر من الفاسقين، وشارب المسكر من الأشرار، وليس شارب المسكر بأمين على درهم فكيف على

الأمة؟ فعن قليل ترد على عملك حين تطوى صحائف الاستغفار»[١].

فالرسالة تفضح السياسة الأموية الطائشة التي تجاوزت كل القيم الإسلامية والإنسانية، وهي تنذر الأمة بعاقبة الانحراف التي تمر بها الأمة، وتحصد سوء فعلها وإسرافها في أمرها.

وفي السنة التي توفي بها معاوية كان الإمام عليه السلام يحضِّر لمشروع الثورة، وذلك من خلال الإعلان العام لرفضه واستنكاره لبيعة يزيد والعمل على قهر الأمة بقبولها، ففي منى اجتمع أكثر من سبعمائة رجل عامتهم من التابعين ونحو مائتي رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال عليه السلام:

«أما بعد، فإن هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإني أريد أن أسالكم عن شيء، فإن صدقت فصدقوني، وان كذبت فكذبوني، وأسألكم بحق اللّه عليكم وحق رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقربتي من نبيكم لما سيرتم مقامي هذا ووصفتم مقالتي ودعوتم أجمعين في أمصاركم من قبائلكم من أمنتم من الناس.

وفي رواية أخرى بعد قوله "فكذبوني" قال:

«اسمعوا مقالتي واكتبوا قولي ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم فمن أمنتم من الناس ووثقتم به فادعوهم الى ما تعلمون من حقنا، فإني أتخوف أن يدرس هذا الامر ويذهب الحق ويغلب، واللّه متم نوره ولو كره الكافرون.

وما ترك شيئا مما انزل اللّه فيهم من القرآن الا تلاه وفسره، ولا شيئا مما قاله رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في أبيه وأخيه

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٢٥٨.

وأمه وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه.

وكل ذلك يقول أصحابه: اللهم نعم، وقد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعي اللهم قد حدثني به من أصدقه وائتمنه من الصحابة، فقال:

أنشدكم اللّه إلا حدثتم به من تثقون به وبدينه.

قال سليم بن قيس الهلالي راوي الخطبة: فكان فيما ناشدهم الحسين عليه السلام وذكرهم ان قال:

أنشدكم اللّه أتعلمون أن علي بن أبي طالب كان أخا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين آخى بين أصحابه فآخى بينه وبين نفسه، وقال: أنت أخي وانا اخوك في الدنيا والآخرة؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أنشدكم اللّه هل تعلمون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم اشترى موضع مسجده ومنازله فابتناه ثم ابتنى فيه عشرة منازل تسعة له وجعل عاشرها في وسطها لأبي، ثم سد كل باب شارع إلى المسجد غير بابه، فتكلم في ذلك من تكلم فقال: ما أنا سددت أبوابكم وفتحت بابه ولكن اللّه أمرني بسد أبوابكم وفتح بابه، ثم نهى الناس ان يناموا في المسجد غيره، وكان يجنب في المسجد ومنزله في منزل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فولد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وله أولاد.

قالوا: اللهم نعم. قال:

أفتعلمون أن عمر بن الخطاب حرص على كوةٍ قدر عينه يدعها في منزله إلى المسجد فأبى عليه، ثم خطب فقال: إن اللّه أمرني أن أبني مسجدا طاهرا لا يسكنه غيري وغير أخي وبنيه؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أنشدكم اللّه أتعلمون ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم نصبه يوم غدير خم فنادى له بالولاية وقال: ليبلغ الشاهد الغائب؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أنشدكم اللّه أتعلمون ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال في غزوة تبوك: أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وأنت ولي كل مؤمن بعدي؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أنشدكم اللّه أتعلمون ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين دعا النصارى من أهل نجران إلى المباهلة لم يأت إلا به وبصاحبته وابنيه؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أنشدكم اللّه أتعلمون انه دفع إليه اللواء يوم خيبر ثم قال: لأدفعه إلى رجل يحبه اللّه ورسوله ويحب اللّه ورسوله، كرار غير فرار يفتحها اللّه على يديه؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أتعلمون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لم تنزل به شدةٌ قط إلا قدمهُ لها ثقةً به، وانه لم يدعه باسمه قط إلا يقول: يا أخي وادعوا لي أخي.

قالوا: اللهم نعم. قال:

أتعلمون أنه كانت له من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كل يوم

خلوة، وكل ليلة دخلة إذا سأله أعطاه وإذا سكت أبداه؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أتعلمون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: انا سيد ولد بني آدم وأخي علي سيد العرب، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة والحسن والحسين ابناي سيدا شباب أهل الجنة؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أتعلمون ان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أمر بغسله واخبره أن جبرئيل يعينه عليه؟

قالوا: اللهم نعم. قال:

أتعلمون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال في آخر خطبة خطبها: إني تركت فيكم الثقلين كتاب اللّه وأهل بيتي فتمسكوا بهما لن تضلوا؟

قالوا: اللهم نعم.

فلم يدع شيئا أنزله الله في علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة وفي أهل بيته من القرآن ولا على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم إلا ناشدهم فيه فيقول الصحابة: اللهم نعم قد سمعنا ويقول التابع: اللهم قد حدثنيه من أثق به فلان بن فلان، ثم ناشدهم أنهم قد سمعوه يقول:

من زعم انه يحبني ويبغض عليا فقد كذب ليس يحبني ويبغض عليا.

فقال له قائل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال:

لأنه مني وانا منه، من أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب اللّه ومن أبغضه فقد أبغض اللّه ومن أبغضني فقد أبغض اللّه.

فقالوا: اللهم نعم، قد سمعنا وتفرقوا على ذلك[1].

وقد حرصنا على متابعة فصول الخطاب كله؛ لأنّه يترجم قضية مهمة وخطيرة وهي كون الثورة الحسينية لم تنطلق من فراغ بل كانت تحتل مساحة واسعة من الثقافة العامة للأمة؛ ومسؤوليتها في ذلك تكمن في إدراك خطورة الموقف الذي تداعت بسببه أمور أدت إلى الثورة والنهوض لتغيير الواقع، فالإمام يذكرهم بتاريخ طويل مشرف لأهل البيت في تثبيت الرسالة ودعائم أركان الدين، وأي تقويض لهذه الدعائم فستكون الأمور خلاف ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يشعرالصحابة الشهود على احداث عقود بان هناك انقلابا حدث على المبادئ والقيم كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾.

فالانقلاب الذي حذر من مغبة ارتكابه القرآن الكريم يستوضحه الإمام في مواقف شهد عليها الصحابة، فلا مندوحة لهم من الاعتذار، ما لم يعلموا على طبق ما أمرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحفاظ على أصول الدين وبقاء الثوابت.

فالثورة إذن بدأت بالتثقيف وسبقتها أطروحة التغيير الفكري والجهاد من أجل استبيان الحقائق وإسداء النصح.

هذه الخاصية لم تكن تاريخية بحتة بل صارت من موروثات الثقافة الشيعية التي قدست المعرفة كما قدست الجهاد ضد الظالمين وغدا التثقيف إحدى علامات الوضع الشيعي الذي لا ينفك عن محاولة الوعي الذي يبثه بين اتباعه، أي وَرِث الوجود الشيعي حركته التثقيفية من عاشوراء يوم كان الإمام الحسين عليه السلام يقدم الحقائق

(1) كتاب سليم بن قيس: ٢٠٦.

والنصح لأصحابه بل حتى لأعدائه.. وغدت هذه الحالة ظاهرة تتميز بها الشخصية الشيعية وكل حركاتها الإصلاحية.

قلنا إن هذه الظاهرة صارت من الموروثات الشيعية وظهرت ملامحها في الحركة الشعائرية التي رافقت التاريخ الشيعي منذ كربلاء الشهادة حتى يومنا هذا، فالشعائر الحسينية" نضجت" فيها الظاهرة الثقافية وعملت على تفعيلها وهي من اهم منجزات الشعيرة الحسينية التي طاردتها الأنظمة الحاكمة، إذ كانت هذه الشعائر ترتضخ المعرفة لاتباعها وتعمل على تثقيفهم، فالمجلس الحسيني لم يقتص على مصيبة الحسين عليه السلام وأهل بيته بل يسبقها الخطيب بمحاضرة تاريخية أو قضية عقائدية أو مسألة علمية أو جميعها كما هو الغالب حتى يخرج بحصيلة عامة يربط نتيجتها بالمصاب الحسيني الذي اجتمع من أجله الحاضرون، أي سيتحمل المشارك في المجلس ثقافة ما تنسجم وتطلعات القضية الشيعية بل تتجاوزها الى قضايا عامة دولية منها ومحلية أخرى، لذا نجد أنّ هذه المجالس تكفلت بتنضيج الرؤية الشيعية لدى اتباعها، وحققت انجازا عظيما في فك الحصار المضروب على الفكر الشيعي وأبدت فعاليتها في تعزيز الثقافة المطاردة التي ضرب عليها النظام السلطوي طوقا من الحظر الذي حاول قمعها وإقصاءها.

إن الثقافة الشيعية كظاهرة ترعرع معها الفرد الشيعي وبنت كيانه في اللبنة الأولى من معرفته وشخصيته الممزوجة بها رؤيته الأولى منذ أن نشأ حتى تكاملت ثقافته ورشدت رؤيته.

الظاهرة الإعلامية

من مكونات الظاهرة الثقافية، أي أن ظاهرة الإعلام عرفت بها الظاهرة الحسينية في ظاهرة إعلامية، وليس الإعلام في مفهومه السلبي الذي يتداوله اليوم أكثر القنوات الإعلامية، بل هو الإعلام الملتزم الذي يعبر عن قضية ما ويهدف إلى مسألة معينة، ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن القضية الحسينية حالة إعلامية امتدت في أغوار التاريخ ونفذت إلى أعماق الحدث، وهذا يعني ان عاشوراء كانت واضحة الملامح غير خفية التوجهات مما اكسبها بعدا علميا خاصا، فالقضية حينما تكون منفتحة بإعلامها على الجميع فإنها ستكون واضحة الدلائل،تمتلك خزينا من الأدلة لإثبات صدقيتها.

إن الظاهرة الإعلامية تشكلت على أساس مقتضيات الحالة التي تعيشها القضية الحسينية.

فالظاهرة الإعلامية تتخذ أشكالا عدة فمن إعلام المنبر الذي يكشف الكثير من الحقائق، والإعلام الشعائري الذي يتخذ الرمزية أساسا له في إظهار القضية الحسينية في مختلف أشكالها، وهذا يجعل الحس الإعلامي لدى الشعائريين في أقصى درجاته.

إن الفن ينطلق من الم المأساة ليعبر عما تكنه النفس من مشاعر تتصاعد صيحاتها على شكل ظاهرة معينة لتوصل ما تريده إلى الخارج. ولنأخذ مثالا على ذلك، وهي

ظاهرة الفن المسرحي الذي لم يعرفه الوسط العربي آنذاك ولم يعتمده في يومياته التي كانت زاخرة بالأدب كالشعر والخطابة والبلاغة والأمثال والرواية، إلا أن المسرح فن طارئ على الحياة العربية لم تعرفه إلا بعد واقعة كربلاء، ولعل ما حدث في مجلس الإمام الصادق عليه السلام من حادثة التمثيل كانت باكورة الأعمال المسرحية التي بدأها الإمام عليه السلام كبذرة أولى لهذا الفن المسرحي المفجع.

روى الكليني في الكافي في كتاب الروضة أن الكميت دخل على الإمام الصادق عليه السلام وأنشده في مصيبة جده الحسين عليه السلام فبينما الإمام يبكي إذ خرجت جارية من عند الحرم وعلى يديها طفل رضيع فوضعته في حجر الإمام الصادق عليه السلام فاشتد بكاء الإمام وعلا نحيبه وجرت دموعه على لحيته الكريمة وصدره الشريف[(١)].

وهذه بادرة أولى – فيما أعلم– بدأت فيها محاولات التمثيل ليكون في الثقافة الشعائرية الفن المسرحي الذي يعمله الشيعة اليوم وشاركت قنواتهم الإعلامية في عرض مثل هذه المسرحيات بل تطورت إلى إعلام لها هويتها الخاصة لتأخذ مكانها في الأعمال التلفزيونية الناجحة.

ومن الجدير بالذكر ان التمثيل إحدى خاصيات الظاهرة الحسينية ما دفع علماء الشيعة إلى الحث عليه وتهذيبه والاهتمام به.

ففي معرض حديثه عن التمثيل يقول العلامة الشيخ عبد الحسين الحلي (رضوان الله عليه) في نصرة المظلوم: «وأنت إذا تيقنت قيام تلك الفائدة الجلية بالمآتم الحسينية قياما طبيعيا أرشدت إليه الأئمة الأطهار عليه السلام بهاتيك الأخبار لزمك الالتزام بوجوبها كفاية ووجوب كلما يفيد مفادها كذلك من تمثيل الفاجعة لحاسة البصر، أو

---

(١) الكافي.

سير مواكب الرجال في الأزقة والشوارع مذكرة بها، ولم تحتج بعد تلك الفائدة الملموسة باليد الى نضد الأدلة على مشروعيتها؛ إذ إنها بهذا البيان الذي يشهد به الوجدان، اجل من ان يرتاب مريبٌ في رجحانها بل وجوبها كفاية. وان اقر بها علاقة وشبها بالمآتم «التمثيل» فان من سبر غوره، وتعمق بالغوص على سره يعلم ان فيه من النكت ما ليس في إقامة المآتم المجردة عنه.. إذا كان السر في إقامة المآتم والغرض منها ظاهراً إظهار مظلومية سيد الشهداء لدى العموم، وباطنا اتفاق كلمة الشيعة وحفظ عقائدهم عن الاندراس على مرور الأزمان. فلا ريب ان تمثيل الواقعة لحاسة البصر بما يصدر فيها من حركة وسكون وقول وفعل أبلغ في إظهار مظلومية ذلك الشهيد الأعظم من الأقوال المجردة على المنابر وفي المجامع، وأدخل في تثبيت العقائد وإحكام الروابط بين أفراد الجعفرية.

إذا كانت الفرقة الجعفرية تذكر في المآتم وعلى المنابر المصائب التي وردت على الحسين عليه السلام ونصب أعينها الأحاديث المرغبة على البكاء عليه والحزن لأجله فتمثيل تلك المصائب للأنظار، له تأثير عظيم في القلوب؛ لأنه يجعل العام والخاص من الجعفرية راسخ العقيدة ثابت اليقين.

لا شك في أن الجعفرية في تمثيلها للفادحة الحسينية تصيب من جهة إحياء أمر الأئمة عليهم السلام، وهذا هو السبب الوحيد لتسليم الحسين عليه السلام نفسه للقتل: ومن جهة أُخرى يحصل لهم ولغيرهم تخزين الطبائع وإبكاء النواظر وإثارة العواطف الرقيقة نحو المصاب بتلك الفادحة الكبرى ورفع أستار عن فضائح الظالمين وأتباعهم.

إن الذين ادخلوا التمثيل في التذكارات الحسينية لا شك أنهم من كبراء رجال أهل الدين المفكرين، وأرباب السلطة المتبعة من الشيعة، ولذلك يظن البعض انه انتشر في بلدان الشيعة من قبل سياسة السلاطين الصفوية الذين هم أول سلسلة استولت على

السلطنة بقوة المذهب ثم أيده رؤساء الشيعة الروحانيون شيئا فشيئا وأجازوه[١].

ولا نريد ان نستقصي كلمات الأعلام الذين أجازوا تمثيل الواقعة وشجعوا عليه كونه جزءا من شعائر المذهب.

وهذا يوقفنا على مدى إسهام الحركة الشعائرية في نهضة المسرح العربي الذي لم يكن يعرفه العرب قبل ذلك، بعد ما كانت تجربتهم المسرحية أوربية النشوء لكن ثقافة المسرح تعززت بسبب الجهد الشيعي الذي قدم الجديد على المستوى الشعبي، نعم على مستوى التنظير المسرحي لم يكن هناك اهتمام؛ إذ كان الاهتمام الشعبي في تأكيد المسرح هو المطلوب في تحقيق الشعيرة الحسينية التي يهتم بها شيعة اهل البيت.

الإعلام المضاد

ولا ننسى أن الإعلام المضاد كان سببا في تفعيل الظاهرة الإعلامية الحسينية، فضلا عن احتباس الظاهرة الحسينية وعدم البوح بمظلومية أهل البيت وما جرى عليهم بل وما لحق شيعتهم من مطاردات وتنكيل فبات الصوت الشيعي محبوساً محظوراً عليه، ولابد والحال هذه ان يحتاج الصوت الشيعي إلى إظهاره بآليات تضمن وصوله إلى اسماع الأمة بل إلى العالم اجمع لبيان ما جرى على أهل البيت من تاريخ دموي ارتكبه الحاكمون على مر العصور، أي استطاع الجهد الشيعي ان يخترق الممنوع ويكسر حاجز الحظر الذي افتعله النظام، وهو أمر لم يسبق إليه احد سواء على صعيد التنظيم السياسي أو على الصعيد الفكري.

إذن الظاهرة الإعلامية صارت من مختصات الجهد الشيعي الذي شل كل جهود الحظر والتكتيم.

---

(١) نصرة المظلوم للشيخ عبد الحسين الحلي والمنسوب للشيخ حسن المظفر وقد حققنا في محله سبب النسبة، راجع مقدمتنا في تحقيق الكتاب.

الظاهرة القرآنية

إحدى الظواهر الحسينية، بل أهمها، فقد عرف الفكر الشيعي بـالفكر القـرآني كونه يستل كل قيمه ومبادئه من القرآن الكريم بما ورثوه من تراث أئمتهم الذين مـا فتئوا ملازمين القرآن غير منفكين عنه كما صرح بـذلك الـنبي صـلى الله عليـه وآلـه وسلم:

«إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا ابدا، كتاب الله وعترتي اهل بيتي».

وهو مقام لا يحرزه أحد سوى مـن أذهـب الله عنـهم الـرجس وطهـرهم تطهـيرا وهي شهادة القرآن لهم بأنهم المطهـرون الـذين لا يمـسهم رجـس ولا نجـس ليـصلوا إلى مقام القيمومة التفسيرية للقرآن وقيمومة الحفظ له:

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وذلك من خـلال قيمومتـهم عليـه فـضلا عـن الإعجـاز الغـيبي فهنـاك الإعجـاز المقامي أي وجود من له مقام القيمومة على فهم القرآن وتفسيره ليحفظ في لفظه ومعناه دون ان تمسه يد التحريف والتزييف.

تعد هذه الظاهرة من اجلى الظواهر الحسينية التي باتت ترافق مسيرة الحسين عليه السلام منذ الإعلان عن دعوته إلى شهادته وحتى ما بعد شهادته.

الظاهرة القرآنية قبل الشهادة

لعل ما يمكن تسجيله الآن من مشاهدات للظاهرة الحسينية هي وضوحها على كلمات الإمام الحسين عليه السلام التي نظّر فيها حركته وعنون خروجه بالأطروحة القرآنية التي ما فتأت تلازمه منذ أول خطواته، فقد نقل المؤرخون ان الإمام الحسين عليه السلام حينما خرج من المدينة متوجها الى مكة ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه الحسن عليه السلام وأهل بيته وهو يقرأ:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولزم الطريق الأعظم فقيل له أو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب قال:

لا والله لا أفارقه حتى يقضي الله ما هو قاض.

ودخل مكة يوم الجمعة لثلاث مضين من شعبان وهو يقرأ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).

فالإمام الحسين عليه السلام ربط تحركه بتحرك موسى عليه السلام لتستذكر الأمة ان المواجهة واحدة بين موسى وفرعون وبين الحسين ويزيد وهو ربطٌ بديع بين الحركتين يغني عن الخطب والبيانات.

وكان كل من أراد الخروج للقتال ودع الحسين بقوله:

السلام عليك يابن رسول الله فيجيبه الحسين عليه السلام: وعليك السلام ونحن خلفك ثم يقرأ:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾(٢).

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٤٠.

(٢) مقتل الخوارزمي ٢٥:٢.

وحين برز علي الأكبر «لم يتمالك الحسين عليه السلام دون ان أرخى عينيه بالدموع وصاح بعمر بن سعد:

ما لك؟ قطع الله رحمك كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلط الله عليك من يذبحك على فراشك.

ثم رفع شيبته المقدسة نحو السماء وقال:

اللهم اشهد على هؤلاء فقد برز إليهم أشبه الناس برسولك محمد خلقا وخُلقا ومنطقا وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إليه، اللهم فامنعهم بركات الأرض وفرقهم تفريقا ومزقهم تمزيقا واجعلهم طرائق قددا ولا ترض الولاة عنهم ابدا فانهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلونا.

ثم تلا قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

فهذه الذرية المباركة التي بعضها من بعض هي ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمتمثلة بولده علي الأكبر الذي عدا عليه قومه فقتلوه كما عدا قابيل على هابيل فقتله، وعدا قوم نوح فكذبوه وعدا قوم إبراهيم فاحرقوه وعدا قوم موسى فأخافوه، فالاعتداء الغاشم الذي لقيته هذه السلسلة من الأنبياء واحد كونهم السلسلة المكملة بعضها للبعض الآخر فكلهم مصطفون من الله تعالى للرسالة، فهم مبتلون كذلك من قومهم بالقتل والمطاردة وما ولدي هذا - وهو لسان حال الحسين عليه

---

(١) المصدر نفسه.

السلام- إلا ضمن السلسلة المصطفاة والمبتلاة كذلك وهو شاهد على توارث المهمة لآل البيت وكونه الاصطفاء اللدني الذي قرره القرآن الكريم فكذلك هو شاهد على الابتلاءات التي لقيها هؤلاء المصطفون كما يلقاه الحسين عليه السلام في نفسه وولده وأصحابه.

هذا الترابط القرآني الذي أوجده الإمام عليه السلام يوم عاشوراء أحدث نقلات نوعية خطيرة في افهام اولئك الذين خرجوا لقتاله بغض النظر عن التغييرات في المواقف، حتى غدوا يتصارعون في أنفسم وكوامن وجداهم ويعلمون ان الواقف أمامهم هو امتداد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وانهم بغوا عليه وقاتلوه ظلما وناجزوه عدوانا.

لقد فتح الحسين بن علي في قرآنيته أفاق الصراع، وكشف عن مدلهمات الأمور، وأوجز الملحمة في تراتيل قدسية ضاقت على كثير فك رموزها وكشفت للآخرين ما حارت به الافهام وتبلدت فيه الألباب.

الظاهرة القرآنية ما بعد الشهادة

أخذ آل الحسين دورا مهما في بيان فلسفة النهضة الحسينية والكشف عن التزويرات التي أحدثتها الدعايات المضادة وقام بترويجها النظام، وكان القرآن شاهدا على هذه الحركة العظيمة، وتبنى رجالاتها هذا الدور المتميز وأضافَ نساؤها معلما قرآنيا جديدا اقضّ مضاجع النظام، ولعل ما نقرأه في المحاورة التالية التي كشف بها الإمام علي بن الحسين زيف الترويج الأموي جزءا من الجهد القرآني الذي بذله أهل البيت في سبيل الكشف عن الحقائق:

فعند دخول عيال الحسين عليه السلام الى الشام «دنا شيخ من السجاد عليه السلام وقال: الحمد لله الذي أهلككم وأمكن الأمير منكم، ها هنا أفاض الإمام من

لطفه على المسكين المغتر بتلك التمويهات لتقريبه من الحق وإرشاده إلى السبيل وهكذا أهل البيت تشرق أنوارهم على من يعلمون صفاء قلبه وطهارة طينته واستعداده للهداية. فقال عليه السلام له:

يا شيخ أقرأت القرآن؟

قال: بلى. قال عليه السلام:

أقرأت:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

وقرأت قوله تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾؟

قال الشيخ: نعم قرأت ذلك. فقال عليه السلام:

نحن والله القربى في هذه الآيات.

ثم قال له الإمام:

أقرأت قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾؟

قال: نعم. فقال عليه السلام:

نحن أهل البيت الذين خصهم الله بالتطهير.

قال الشيخ: بالله عليك أنتم هم؟! فقال عليه السلام:

وحق جدنا رسول الله إنا لنحن هم من غير شك.

فوقع الشيخ على قدميه يقبّلهما ويقول: أبرأ إلى الله ممن قتلكم وتاب على يد

الإمام مما فرط في القول معه، وبلغ يزيد فعل الشيخ وقوله، فأمر بقتله[١].

وبهذا فقد دخل القرآن الكريم في الصراع الفكري الذي أججه مقتل الإمام الشهيد وحكم لآل البيت صحة المنهج وسلامة المعتقد، وكشف التزوير الذي أحدثته الدعاية الأموية في شل حرمة الإصلاح الرسالي الذي أعلنه الإمام الحسين عليه السلام.

استطاع الإمام زين العابدين في ثلاث آيات قرآنية أن يغير من قناعة الشيخ مما أربك النظام هذا التحول الفكري الذي أحدثته هذه الآيات القرآنية فأمر بقتل الشيخ فكيف بحال الأمة لو اطلعت على ما اطلع عليه الشيخ؟!

هكذا كان القرآن بل ولا يزال ظهيرا للحركة الحسينية التي اختطفت النصر الموهوم من عيون آل أبي سفيان وألقت كبرياءهم إلى حضيض التنظيرات الزائفة غير المجدية. ولما كان القرآن حاكما في المنازعات التي جرت بين كل طرف لإظهار موقفه حاول الأمويون تسخيره لصالحهم إلا أن الإمام زين العابدين تصدى لهذا التحرك الموهوم وكشف تزييف الحقائق التي لج فيها بنو أمية.

فقد دار الكلام بين الإمام زين العابدين وبين يزيد أن قال يزيد لعلي بن الحسين: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» قال علي بن الحسين:

ما هذه فينا نزلت إنّا نزل فينا:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

فنحن لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا.

---

(١) مقتل المقرم: ٣٦٨.

فانشد يزيد قول الفضل بن العباس بن عتبة:

مهــلا بــني عمنــا مهــلا موالينــا   لا تنبـشوا بيننـا مـا كـان مـدفونا[(١)]

فتسخير الآيات القرآنية من قبل يزيد كان في غير محله، وكان علي بن الحسين دقيقا في كشف مغالطات النظام فاستبدل آية مكان أخرى لئلا يجعلها النظام وسيلة لتمرير خططه، فغلبة الإمام علي بن الحسين على محاولة يزيد دليل على ان الظاهرة القرآنية كانت حاضرة في كل حين من أحيان المشهد الكربلائي.

القرآنية الزينبية

ولابد أن تكون البيانات الكربلائية وخطبها مدعمة بالقرآن الكريم، اذ الآيات القرآنية كانت شاهدة على الحركة الإصلاحية التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام، وهي في الوقت نفسه شاهدة على هذه الملحمة، حتى غدت الملحمة الكربلائية ملحمة قرآنية بكل توجهاتها ودقائقها.

فالخطاب الذي ألقته السيدة زينب بنت علي كان خطابا قرآنيا صك أسماع يزيد وحاشيته، واستزاد الخطاب الزينبي جذوته المتألقة من الخطاب القرآني الذي كان شاهدا وحاضرا في كربلاء، وعينة من الخطاب الزينبي يثبت لنا هذه القرآنية الزينبية التي نستعرضها بشكلها الموجز. قالت:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين. صدق الله حيث يقول:

﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٣٧٠.

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تُساق الاسارى ان بنا على اللّه هواناً، وبك عليه كرامة، وان ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسرورا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً، انسيت قول اللّه تعالى:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

ثم تسترسل في خطبتها العظيمة حتى تقول:

فواللّه ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك، ولتردن إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حين يجمع اللّه شملهم، ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[١].

الزيف المفضوح

ولم يحر يزيد جوابا بعدما سمع هذه البلاغة الحيدرية التي أفرغتها على لسانها زينب بنت علي تلك اللبوة التي زأرت زأرة الثأر فبقيت ترن في أسماع الدهر حتى يومنا هذا، وتسافل المنطق الأموي ليجيبها بهذا البيت:

يا صيحةً تحمد من صوائح ... ما أهون النوح على النوائح

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٣٧٨.

ثم يتمادى في جهله ليقول:

أتدرون من أين اُتي ابن فاطمة، وما الحامل له على ما فعل وما الذي أوقعه فيما وقع؟

قالوا: لا.

قال: يزعم أن أباه خير من أبي، وأمه فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وجده خير من جدي وانه خير مني وانه أحق بهذا الأمر مني.

فأما قوله: أبوه خير من أبي، فقد حاج أبي أباه إلى الله عزوجل وعلم الناس ايهما حُكمَ له، وأما قوله: خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي، واما قوله: جده خير من جدي فلعمري ما احد يؤمن بالله واليوم الآخر وهو يرى ان لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً، ولكنه انما اُتي من قلة فقهه ولم يقرأ:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾.

وقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾[1].

وهذا اغرب ما رأيت من المحاججات، فقد حاج يزيد نفسه، فهو يعترف ان الحسين من سلالة خير البشر اذ لا يقاس به احد، ولا يبلغ شأوه متحد، ولا ينازعه في ذلك كبير ولا صغير، ولا وضيع ولا شريف، وأمه فاطمة خير نساء العالمين وأبوه صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيه وهو يعلم ان الموت لما كان اجلاً محتوماً لا يعني ان الله يأخذ عباده به، فلا تعني ان معاوية حاج عليا بموته قبله فتلك آجال لا

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٣٧٩.

تدخل بها إرادة أحد ورغبته في تقديمه أو تأخيره، والأعجب تكذيبه لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا وقوله: حسين مني وانا من حسين، واذا كان الحسين عليه السلام امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف تغيب عنه الحكمة ويُتهم بعدم الفقه في الدين؟! وهل هو الا من رسول الله علماً وحكمةً وفقهاً وسمتاً؟! وقد حاول يزيد ان يسخر الآيات القرآنية بما ينسجم وتوجهات النظام في شل حركة الإصلاح وتزييف الحقائق.

الظاهرة القرآنية وأدبيات الثورة الحسينية

من المثير في القضية الحسينية ظاهرتها القرآنية ولعل الجولة التي انتهت بنا فيما تقدم من أن الظاهرة القرآنية استفحلت على المفهوم العام للثورة الحسينية حتى استحالت الخطب والكلمات التي عززت الخطاب الثوري للحركة الحسينية ظاهرةً قرآنية، أي كان القرآن شاهدا لثورة الإمام الحسين عليه السلام مما جعل أعداءه يتربصون بالظاهرة القرآنية ليحيلوها إلى مشروعهم دون تدبر، واستفحلت الظاهرة القرآنية ليس على الخطاب الحسيني وحده بل ترعرع الأدب الحسيني برثائه ومديحه في الظاهرة الحسينية، ونمت الظاهرة الحسينية في الوسط القرآني حتى انجر ذلك إلى الحس الأدبي ونما في وجدانيات الشاعر الحسيني فخرجت القصيدة الحسينية منقحةً بالآيات القرآنية ومستلة من المفهوم القرآني وحاول الشاعر الحسيني ان يجيد بإبداع لم يسبقه اليه احد في تسخير الآيات القرآنية وتطويعها لرسم الصورة الحسينية بأصدق تصوير وأنبل وصف.

ولعل استخدامنا للأنموذج الذي بين أيدينا سيوقفنا على هذه الحقائق، فالشيخ صالح الكواز الحلي -الأنموذج - وظف قصائده الحسينية في خضم المفهوم القرآني وحقق الظاهرة الحسينية بصورتها الشعرية، ولنا الآن ان نتابع الظاهرة القرآنية في الشعر الحسيني.

الظاهرة القرآنية في شعر صالح الكواز

تطالعنا حسينيات الشيخ صالح الكواز بقرآنيتها المتميزة، فقد استفاد الشاعر من الصور القرآنية المتراكمة في الآية الواحدة وهو إبداع يسجَل ليس لخصوص الشاعر وحده، بل للجهد الأدبي الذي استخدمه الشعراء، فمثلا استخدم الصور القرآنية في سورة يوسف بهذا الرثاء:

لي حزن يعقوب لا ينفك ذا لهب	**لصرع نصب عيني لا الدم الكذبِ**
وغلمة من بني عدنان أرسلها	**للجد والدها في الحرب لا اللعبِ**
ومعشرٌ راودتهم عن نفوسهم	**بيض الضبا غير بيض الخرد العربِ**
فانعموا بنفوس لا عديل لها	**حتى اسيلت على الخرصان والقضبِ**
فانظر الى اجسادهم قد قُد من قبلٍ	**اعضاؤها لا الى القمصان والاهب**[1]

فقد ضمن الشاعر أبياته من قوله تعالى:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

ضمنه في قوله:

وغلمةٌ من بني عدنان ارسلها	**للجد والدها في الحرب لا اللعبِ**

وضمن قوله تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾.

---

(١) القرآنية في علويات الشيخ صالح الكواز الحلي للدكتور علي كاظم المصلاوي والاستاذة كريمة نوماس المدني- مجلة اهل البيت عليهم السلام السنة الثالثة العدد السادس تموز ٢٠٠٨.

(٢) يوسف: ١٨.

فقال:

ومعـــشرٌ راودتهـــم عـــن نفوســـهم بيض الضبا غير بيض الخرد العربِ

وفي قوله تعالى:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

قال الشاعر:

فـــانعموا بنفـــوس لا عـــديل لهـــا حتى اسيلت على الخرصان والقضبِ

فـانظر لأجـسادهم قـد قُـد مـن قبـلٍ أعـضاؤها لا الى القمـصان والأُهَـبِ

وقوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

ضمنه الشاعر بقوله:

كـل رأى ضـر أيـوب فمـا ركـضت رجـل لـه غـير حـوض الكـوثر العـذب

وفي قصة موسى قال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

وفي هش الكليم على أغنامه بعصاه قال تعالى:

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ضمن الشاعر هاتين الآيتين بهذه الأبيات :

وآنسين من الهيجاء ناروغى	في جانب الطف ترمي الشهب بالشهبِ
فيمموها وفي الايمان بيض ظبا	وما لهم غير نصر الله من اربِ
تهش فيها على آساد معركةٍ	هش الكليم على الأغنام للعشب

وفي قصة النهر وما جرى على طالوت وأصحابه في الابتلاء بشربه قال تعالى :

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ومبتلين بنهر ما لوارده	من الشهادة غير البعد والحجب
فلن تبلَ ولا في غرفة أبدا	منه غليل فؤاد بالظما عطب
حتى قضوا فغدا كل بمصرعه	سكينة وسط تابوت من الكثب
فلْيبكِ طالوت حزنا للبقية من	قد نال داود فيه أعظم الغلب

وقول الشاعر : «سكينة وسط تابوت من الكثب» مأخوذ من قوله تعالى :

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقد جمع الشاعر مَطالع بعض الآيات القرآنية كالعاديات والمرسلات والنازعات والذاريات فضلا عما جاء في سياقات بعضها كالناشرات والموريات، فقد استخدم هذه

الألفاظ وضمنها في أبياته فقال:

يرنو إلى"الناشرات" الدمع طاوية	اضلاعهن على جمر من النوب
و"العاديات" من الفسطاط ضابحةً	و"الموريات"زناد الحزن في لهبِ
و"المرسلات" من الأجفان عبرتها	و"النازعات" برودا في يد السلبِ
والذاريات ترابا فوق ارؤسها	حزنا لكل صريع بالعرا تربِ

ويمكن تلخيص جهد الشاعر القرآني بهذه القائمة المقابلة لكل آية كريمةٍ ببيت شعري ضمنه الشاعر واليك ما قدمه الباحثان في مقالتهما المنشورة[1].

١- قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ القصص: ٢٣.

ضمنه الشاعر بقوله:

لم انسَ إذ ترك المدينة واردا	لا ماء مدين بل نجيع دماء

٢- وقوله تعالى:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ النبأ ١-٢.

قال الشاعر:

يا أيها النبأ العظيم إليك في	ابنيك مني أعظم الأنباء

٣- وقوله تعالى:

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يوسف: ٢٦.

(١) مجلة اهل البيت العدد السادس السنة الثالثة ٢٠٠٨م.

قال الشاعر :

فـانظر لأجـسادهم قـد قُـد مـن قبـلٍ　　　أعـضاؤها لا إلى القمـصان والاهـب

٤ـ قوله تعالى :

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ المرسلات : ٢ـ٣

قال الشاعر :

يرنـو الى الناشـرات الـدمع طاويـةً　　　اضـلاعهن علـى جمـرٍ مـن النـوب

٥ـ قوله تعالى :

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ المرسلات : ١ .

وقوله تعالى :

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ النازعات : ١ .

قال الشاعر :

والمرسـلات مـن الأجفـان عبرتهـا　　　والنازعـات بـرودا في يـد الـسلبِ

٦ـ قوله تعالى :

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾ الذاريات : ١ .

قال الشاعر :

والـذاريات ترابـا فـوق أرؤسـها　　　حزنـا لكـل صـريعٍ بـالعرا تـرب

٧ـ قوله تعالى :

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ .

قال الشاعر:

وصبيةٌ من بني الزهراء مربقة　　　بالحبل بين بني حمالة الحطبِ

٨- قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ الإنسان: ١.

قال الشاعر:

هل أتى «هل أتى» في مدح فضلهمُ　　　من الإله لهم في اشرف الكتب

٩- قوله تعالى:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يوسف: ١٠.

قال الشاعر:

والفضل آفة أهليه ويوسف في　　　غيابة الجب لولا الفضل لم يغبِ

١٠- قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوسف: ١٢.

قال الشاعر:

يا سادتي يا بني الهادي ومن لهمُ　　　بثي وحزني اذا ما ضاق دهريَ بي

١١- قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ الحج: ٢.

قال الشاعر:

ولتذهل اليوم منكم كل مرضعة　　　فطفله من دما أوداجه رضعا

١٢ـ قال تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ يوسف: ٨٠.

قال الشاعر:

وقفوا معي حتى اذا ما استيأسوا خلصوا نجياً بعدما تركوني

١٣ـ قوله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ المطففين.

قال الشاعر:

تلك الرزايا الباعثات لمهجتي ما ليس يبعثه لظى سجين

١٤ـ قوله تعالى:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ القصص: ٢٥.

قال الشاعر:

قد كان موسى والمنية اذ دنت جاءته ماشيةً على استحياء

١٥ـ قال تعالى:

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ الأعراف: ١٤٣.

قال الشاعر:

فهناك خر وكل عضو قد غدا منه الكليم مكلم الأحشاء

١٦ـ قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ المدثر: ١ـ٢.

وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ المزمل: ١-٢.

قال الشاعر:

مـدثرين بكـربلا سـلب القنـا   مـزملين علـى الربـى بـدماء

١٧- قوله تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ النساء: ١٥٧.

قال الشاعر:

فـان عليـه اُلقـي الـشيخُ الـذي   تـشكل فيـه شـبه عيـسى لـصالب

١٨- قوله تعالى:

﴿ وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ يوسف: ١٨.

قال الشاعر:

لـي حـزن يعقـوب لا ينفـك ذا لهـبٍ   لـصرعٍ نـصب عـيني لا الـدم الكـذب

١٩- قوله تعالى:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يوسف: ١٢.

قال الشاعر:

وغلمـة مـن بـني عـدنان أرسـلها   للجـد والـدها في الحـرب لا اللعـب

٢٠- قوله تعالى:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ يوسف: ٢٣.

قال الشاعر:

ومعـــشر راودتهـــم عـــن نفوســـهم بـيض الظبـا غيـر بيض الخـرد العُـرب

٢١- قوله تعالى:

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ ص: ٤٢.

قال الشاعر:

كـل رأى ضـر أيـوب فمـا ركـضت رجـل لـه غيـر حـوض الكـوثر العذب

٢٢- قوله تعالى:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ طه: ١٨.

قال الشاعر:

تهـش بهـا علـى آسـاد معركـةٍ هـش الكلـيم علـى الأغنـام للعشب

٢٣- قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾ البقرة: ٢٤٩.

قال الشاعر:

ومبـــتلين بنهـــر مـــا لـــوارده مـن الـشهادة غـير البعـد والحجـب

٢٤- قوله تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ البقرة: ٢٤٨.

قال الشاعر:

حتى قضوا فغدا كلٌّ بمصرعه سكينةٌ وسط تابوت من الكثب

٢٥- قوله تعالى:

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ القصص: ٧.

قال الشاعر:

وما حكتها ولا "أم الكليم" اسىً غداة في اليم ألقته من الطلب

٢٦- قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الاسراء: ٦١.

قال الشاعر:

وصفوة الله لم يسجد له حسدا إبليس لما رأى من أشرف الرتب

٢٧- قوله تعالى:

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوبة: ٩٣.

قال الشاعر:

وتلكم شبهة قامت بها عصبٌ على قلوبهم الشيطان قد طبعا

٢٨- قوله تعالى:

﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ الأعراف: ١٤٣.

وقوله تعالى:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ النساء: ١٥٧.

قال الشاعر:

فان جسمك موسى مذ هوى صعقا وان رأسك روح الله مذ رفعا

٢٩- قوله تعالى:

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الأنبياء: ٦٩.

قال الشاعر:

ونار فقدك في قلب الخليل بها نيران نمرود عنه الله قد دفعا

٣٠- قوله تعالى:

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ الأعراف: ١٦٠.

قال الشاعر:

كلمتُ قلب كليم الله فانبجست عيناه دمعاً دماً كالغيث منهمعا

٣١- قوله تعالى:

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء: ١٥٨.

قال الشاعر:

ولو رآك بأرض الطفّ منفردا عيسى لما اختار ان ينجو ويرتفعا

٣٢- قوله تعالى:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ المائدة: ٤٨.

قال الشاعر:

إن لم تسدوا الفضا نقعاً فلم تجدوا الى العلا لكم من منهجٍ شرعا

٣٣ـ قوله تعالى:

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ مريم: ٤.

قال الشاعر:

وان سراج العيش حان انطفاؤها　　　فقد اشعلت نار المشيب ذبالها

٣٤ـ قوله تعالى:

﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ يوسف: ١٨.

قال الشاعر:

وقوّضَ بالصبر الجميل فتىً به　　　فقدن حسان المكرمات جمالها

٣٥ـ قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ القارعة: ٦ـ٧.

قال الشاعر:

وماضرَّ ميزاني ثقالُ جرائمي　　　اذا كنتُ فيها مستخفاً ثقالها

٣٦ـ قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ الحاقة: ٦.

قال الشاعر:

فكأن الرياح منه استعارت　　　يوم عادٍ عدوا فأضحت رماما

٣٧ـ قوله تعالى:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ الاعراف: ١٦٠.

قال الشاعر:

فتخال موسى في انبجاس محاجري مستسقيا للقوم ماء جفوني

٣٨- قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ يوسف: ٧٢.

قال الشاعر:

فكأن يوسف في الديار محكمٌ وكأنني بصواعه اتهموني

قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ الصافات: ١٣٩-١٤٦.

قال الشاعر:

ما ساهموا الموت الزؤام ولا اشتكوا نصباً بيومٍ بالردى مقرونِ

حتى اذا التقمتهم حوت القضا وهي الأماني دون خير أمين

نبذتهم الهيجاء فوق تلاعها كالنون ينبذ بالعرا ذا النون

فتخال كلاً ثم يونس فوقه شجر القنا بدلاً عن اليقطين

٣٩- قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ الشمس: ١١-١٢.

وقوله تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ق: ١٤.

قال الشاعر:

وتتبعت اشقى ثمود وتُبعٍ   وبنت على تأسيس كل لعين

٤٠ـ قوله تعالى:

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ الشمس: ١٣.

قال الشاعر:

ما كان ناقة صالح وفصيلها   بالفضل عند الله الا دوني

هذه الشواهد الأربعون التي تعيننا في بيان الظاهرة القرآنية الحسينية والتي أسسها شعراء حسينيون نذروا أنفسهم على ان يقدموا هذه الملحمة على أنها أطروحة قرآنية وفِّقَ الشاعر الحسيني أيما توفيق حتى استطاع ان يوظف القصيدة الحسينية في خدمة المفهوم القرآني، وأثبت أن القرآن يتحرك من خلال المشهد الكربلائي المتكون من الشخوص والأحداث المقاربات لحدث الآية القرآنية وشخوصها، أي ان الشاعر الحسيني استطاع ان يقدم مقاربات ناجحة بين الآية وبين الحدث أي بين الحادثة القرآنية والحادثة الكربلائية حتى تمكنت القصيدة الحسينية ان تعشِّق بين الآية القرآنية وبين المجريات الكربلائية بما أعطى للحدث الكربلائي تراثه القرآني وأعطى للآية القرآنية حركيتها "الكامنة" التي تحتاج إلى محرك واقعي ينطلق من الواقع سواء الحاضر منه أو التاريخي، وبلغ بالشاعر الحسيني ان يستنهض الآية القرآنية لتحكي له الواقعة واستطاع ان يوظف الواقعة لتجسد الآية شخوصا واحداثا، ومن الملفت للنظر ان الشاعر استطاع ان يتعامل مع أكثر من آية ليقدم صورته الكربلائية كما في آيتي المدثر والمزمل بقوله:

مدثرين بكربلا سلب القنا   مزملين على الربى بدماء

واستطاع كذلك ان يتعاطى مع آية واحدة ليكون بها ثلاثة أبيات وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾... إلى قوله تعالى ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾.

فاستطاع الشاعر ان يكون أربعة أبيات بقوله:

ما ساهموا الموت الزؤام ولا اشتكوا... الى آخر الابيات، فهو لم يجمد على مفهوم قرآني واحد بل استطاع ان ينتزع الصورة الكربلائية من أكثر من آية وفي الوقت نفسه ان يعدد الصورة الكربلائية في ضمن آية واحدة، فكان البناء الفني قرآنياً صرفاً تداعت فيه الصور بشكل غير مسبوق كما في قوله:

كأن جسمك موسى مذ هوى صعقا   وان رأسك روح الله مذ رفعا

فالبيت وظفه لملحمتين قرآنيتين مهمتين إحداهما ملحمة موسى والأخرى ملحمة عيسى عليهما السلام فكان بارعا بحق بأن يختزل ملحمتين في بيت واحد. على ان الشاعر وظف القصيدة الحسينية للمفهوم القرآني وبث في شاعريته روحاً قرآنية أعرض عنها جميع الشعراء فكان الشاعر الكربلائي سبّاقا لهذا الإبداع، واكبر ظني أن الشاعر الحسيني يدفعه إحساسه المشبع بالغبن الذي أحدثته الواقعة الكربلائية من تقتيل وتنكيل، ثم هو لا يفتأ حتى يتلقى اتهامات تحريف القرآن أو عدم اهتمام الشيعة بالمفاهيم القرآنية وابتعادهم عن القرآن بشكل تفاقمت هذه التهم إلى حد التكفير، في حين يرى الشاعر الحسيني ان ثورة الحسين عليه السلام كانت تنطلق من القرآن الكريم وحاولت الحفاظ على القرآن وإرجاع الأمة إليه بعدما أبعدتها المفاهيم السياسية عن ذلك، ثم هو يتردد في ذهنه مقالات الإمام وخطبه القرآنية وما استخدمه أهل البيت عليهم السلام من آيات قرآنية في سبيل إثبات حضور القرآن في حياة الأمة وجرها إليه وربطها به ثم بعد ذلك يجد الشاعر نفسه متهماً من قبل الآخر بعدم الاهتمام بالقرآن والابتعاد عنه.

الظاهرة القرآنية.. الثقافة القرآنية

غدت الظاهرة القرآنية في المفهوم الشيعي ثقافة قرآنية، واستوعبت الثقافة الحسينية الظاهرة القرآنية لتجعلها مفهوماً ثقافياً تمرست عليها الأجيال وخاضتها ضمن غمار المطاردات التي أحدثها الحاكم تهويلا لتهمة الابتعاد الشيعي عن دائرة القرآن الكريم، ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إن الثقافة القرآنية استعادت عافيتها ضمن التثقيف الحسيني الذي ارتسمت على معالمه الظاهرة القرآنية، وكانت ملامح الفكر الديني الذي سعت إلى تنضيجه ثقافة الشعائر الحسينية، والتي برمجت آلياتها لتنمية المفهوم القرآني وإدخاله ضمن أدبيات الشعيرة الحسينية، أي لم تخلُ الشعيرة الحسينية من محاولات تعزيز المفهوم القرآني لدى الشعائريين الذين يحضرون المجالس الحسينية، والتي ستكون خطاباتها مفعمة بالآيات القرآنية وتفسيرها والتدليل على حقيقة الثورة الحسينية بهذه الآيات التي عززت فلسفة النهضة الحسينية، فالخطيب إذا أراد ان يتعرض لموضع ما؛ لا يستقيم هذا الموضوع حتى تتوارد الشواهد القرآنية تباعا يجعل الشاهد القرآني جزءا من موضوعه مما يدفع بالمتلقي إلى متابعة الآيات القرآنية ويدخلها ضمن اهتماماته الشعائرية وسيكون المشارك متلقيا قرآنيا نوعيا بامتياز، أي لم يكن المتلقي حافظا بقدر ما سيكون مستوعبا للمفهوم القرآني، ناشئا على تربيةٍ قرآنية جديرةٍ بضمان رؤية قرآنية لعقل جمعي ارتكزت لديه مفردات قرآنية ذات دلالات معرفية تتصاعد وتيرتها دائما، وبمعنى آخر: إنّ الشعائر الحسينية خلقت "مجتمعاً قرانياً" يضع القرآن نصب عينيه ليمارسه في حياته، وبهذا فـ"الممارسة القرآنية" ارتكازية لعقلٍ جمعي يرفد معرفته من مفهوم قراني، ولا ننسى ما للشعائر الحسينية الأخرى من تأثير على الانسيابية المعلوماتية التي يتوارثها المشارك تعزيزا لثقافته القرآنية حتى بدت الظاهرة القرآنية واضحة المعالم على التراث الفكري الشيعي لينتج هذا الجهد الشعائري مجتمعاً قرآنياً يتمتع بمواصفات الموروث القرآني الذي ما فتأ ينهض بآليات مستجدة كفوءة.

الظاهرة الأدبية

ترعرعت الظاهرة الحسينية في وسط أدبي قاد بالثقافة الشيعية إلى وضع أدبي متميز، وفن تراجيدي مبدع سعى لتقديم الحادثة الكربلائية الى مذاقات أدبية غير مسبوقة، ولا نبالغ أن الإبداع الأدبي بدأت حركته تسجَل بشكلٍ متنامٍ بعد النهضة الحسينية، أي لم نستطع الإذعان الى الادب العربي للعهد الاسلامي الا بعد واقعة الطف تحديدا، ذلك؛ لأن الحس الادبي لدى المبدع لا يمكنه ان يتحرك الا ضمن تداعيات من الالم تحتفز في ذاكرته بشكل لا تدعه حتى يعبر عن وجدانياته بشكل فني يجذب انتباه المستمع ويشد الآخرين الى متابعة قضيته، ولم يكن لدى العربي آنذاك غير القصيدة الشعرية بدواعيها الإبداعية المشدودة الى حادثة تركت في نفسه وقعاً محزناً، فالانماط الإبداعية تتحفز من واقع استباحته حادثة ما، أو مظلومية اوقدت في حشاشة الشاعر أثرا عاطفيا، أو قضية دعته ان يسجلها في مجهوده الشعري الإبداعي ليشارك إحساساته المنبعثة من مأساة فرض عليه واقعها بمحاولة أدبية، هكذا هي القصيدة تولد من مأساة، وتتقد من مظلومية، وتنبعث من حادثة تؤجج لدى الشاعر ابداعاته.. فما ظنك بحادثة الطف التي أججت الوجدان الشيعي وتنامت معها أجيال حتى صارت المأساة الكربلائية ترتكز في الذاكرة الشيعية لتحفز في دواخلها تراجيديا لم تغب عنها ملاحم الطف، أي اخذ الإبداعَ الشيعي ينمو في ظروف الألم، ويترعرع في بيئة حزنٍ تصطبغ بدماء كربلاء حمراءَ

قانيةً تقرر فيها توهج الشاعرية الكربلائية، وتنفتح الروح الإبداعية لتولد منها القصيدة التي تحكي واقع المأساة. ولنا أن نقول إن الادب العربي – خصوصا القصيدة الشعرية– أنقذته واقعة كربلاء من حالة التسيب وباتت القصيدة الكربلائية قصيدة ملتزمة تنشد قضيتها بكل مسؤولية، فالأطلال التي كان يبكي عليها الشاعر العربي استبدلتها القضية الحسينية بالبكاء على أجسادٍ زواكٍ قدمت نفسها قربانا لقضيتها، والغزل الذي ينسجه الشاعر من مخيلته مليء بمغامرات الحب والعشق غير الملتزم، بينما استبدل الشاعر الكربلائي القصيدة الغزلية بمغازلة الأشخاص التي أرخصت نفسها للفداء، ولم يكن التفاخر بالقبيلة مرغوبا لدى الشاعر الحسيني حتى استبدله بالمفاخرة بمواقف الأُلى من آل هاشم وأصحابهم الذين سجلوا ملاحم التضحية، وبات الهجاء غير محمود في أدبيات القصيدة الكربلائية سوى ما يحكي عن مساوئ اولئك الذين عدوا على آل نبيهم ولم يراعوا له إلاّ ولا ذمةً، اذن خلقت كربلاء شاعرا ملتزما، وقدمت قصيدة إبداعية مسؤولة لا تعاني من هوس الوجدان المنفلت، وبمعنى آخر صار الأدب الشيعي أدبا ملتزما بحرارة المأساة، ومتعقلاً بفاعليته الحماسية، في حين يتراجع غيره إلى منخفضاتٍ واطئة الى الإحساس بجمالية الغرض؛ ليكون غرضا تقليديا غير متوهج بشعور المسؤولية، ويبقى الأدب غير الشيعي أدبا ضعيفا غير ذي جدوى ولا ذا إبداع، وتتفاقم مسؤولية الشاعر الكربلائي لتأخذ بالحيز الشعري لتملأه إبداعات جديدة يوما بعد آخر، حتى غدا الشعر شيعي الانتماء كربلائي الإبداع وغيره لا يعدو عن محاولات خاسرة غير ذات جدوى، لذا فانك ترى ما من شاعر تتطاول شاعريته الى عنان أفق الشهرة والإبداع الا وكان شيعيا بامتياز، وهاك النابغة الجعدي، وأبا الأسود الدؤلي، والفرزدق والكميت الاسدي وأبا تمام الطائي وأبا نؤاس وأبا الطيب المتنبي وغيرهم ممن حملوا خشبة القصيدة الشعرية على أعناقهم

ليرتقوا فيها بأسباب الإبداع الشعري، ولست في صدد اتهام الشاعر غير المنتمي لأهل البيت في إخفاقاته الشعرية غير الإبداعية إلى عدم قدرته على الإبداع والترقي بالصورة الشعرية أو الغرض الشعري لقصيدته، فلم يكن هذا الاخفاق ذاتيا بل كونه يحكي عن عدم انتمائه الى قضية تعزز لديه الإبداع وينطلق من هذه القضية الى أغراضه الشعرية بل يكاد يكون ذا شاعرية عبثية غير متسقة مع وجدانياته أو انها متسيبة الأغراض لا تحكي عن قضية ما، وهذا الذي جعل بعد ذلك ان يكون الأدب شيعياً صرفاً، والشعر حسينياً محضاً، تتنامى إبداعات الشاعر خلف قضايا إنسانية ودواعٍ أخلاقية ودوافع عاطفية كلها يجمعها عنوان كربلاء.

خلق الإبداع الشعري في مدرسة أهل البيت

لم ينطلق الأدب الشيعي من فراغ كما قدمنا، بل كان الشاعر يتوارى خلف إحساساته الوجدانية التي لا تنفك عن إمداده بالملكة الإبداعية، ولم يكن هذا الإحساس وحده يتقد في ضمير الشاعر فيدفعه إلى مبدع متميز، بل كانت هناك دواعٍ دعت الشاعر إلى المبادرة في الاستجابة إلى وجدانياته وآلامه وهذه الدواعي خلقتها مُثل الانصياع إلى أئمّة أهل البيت الذين ما فتأوا يرعون هذه القابليات الشعرية ويعملون على تنميتها، فمن ذلك ما عمله اهل البيت في تشجيع الشعراء بإلقاء قصائد الرثاء في محضرهم فمثلا «دخل جعفر بن عفان على الصادق فقال له: انك تقول الشعر في الحسين وتجيده، قال:

نعم.

فاستنشده، فلما قرأ عليه بكى حتى جرت دموعه على خديه ولحيته وقال له:

لقد شهدت ملائكة الله المقربون قولك في الحسين وانهم بكوا كما بكينا، ولقد اوجب الله لك الجنة.

ثم قال عليه السلام :

من قال في الحسين شعرا فبكى وابكى غفر الله ووجبت له الجنة[١].

كما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام انه من قال فينا بيتا من الشعر بنى الله تعالى له بيتا في الجنة، وفي آخر حتى يؤيَد بروح القدس، وفي ثالث بنى الله له في الجنة مدينةً يزوره فيها كل ملك مقرب ونبي مرسل.

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام في أيام التشريق لما انشد قصيدته :

«من لقلب متيَّمٍ مستهام» لا تزال مؤيداً بروح القدس، واستأذن الكميت على الصادق عليه السلام في أيام التشريق ينشده قصيدته فكبر على الإمام ان يتذاكروا الشعر في الأيام العظام، ولما قال له الكميت انها فيكم انس أبو عبد الله عليه السلام حيث انه من الذكر اللازم لان فيه إحياء أمرهم ثم دعا بعض أهله فقرب ثم انشده الكميت فكثر البكاء ولما اتى على قوله:

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ... فيا آخراً اسدى له الغي اول

رفع الصادق عليه السلام يديه وقال:

اللهم اغفر للكميت ما قدم وأخر وما أسر وأعلن وأعطه حتى يرضى[٢].

إذن استطاع المنهج التربوي لأهل البيت ان يوجد الابداع الأدبي ويترعرع المبدع في كنف دعوتهم للإبداع ويدفعونه إلى التماس أساليب الفن والابتكار في بيان مظلوميتهم لكن من خلال استعراض ما جرى على سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام.

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١١٤.

(٢) نفس المصدر.

الشعر الحسيني في حلبة الإبداع

وحاولت المطاردات السياسية ايقاف المسيرة الادبية الكربلائية فكان الشاعر مأخوذا بجريرة المدح والثناء لآل البيت عليهم السلام مما دعا الكميت الاسدي إلى ان يشير في هاشمياته الى تلك المحنة فيقول:

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها	ويا حاطبا في غير حبلِك تحطب
الم ترني من حب آل محمدٍ	أروح وأغدو خائفاً أترقب
كأنيَ جانٍ محدث وكأنما	بهم اتقي من خشية العار أجرب
على أي جرم أم بأية سيرةٍ	أُعنَف في تقريظهم واؤنَب[1]

ومع هذا استطاع الأدب الشيعي ان ينقد قويا في حلبة الإبداع ويقرر الجولة الصالحة خصوصا في العصور الحلية الأدبية، واقصد بذلك فترات الشعراء الحليين الذين كانت لديهم الظاهرة الأدبية الحسينية واضحة المعالم حتى لا يكاد شاعرٌ حلي يتخطى الرثاء الحسيني ليكون شاعرا له شهرته الأدبية ومدرسته المتميزة، وإذا أردنا ان نستعرض بعض ما قاله الحليون فإننا لا نتجاوز إبداعية السيد حيدر الحلي ذلك الناعي الذي تضخمت على جنبات قصائده الإبداعات الأدبية حتى غدت لكل بيتٍ من قصائده مدرسة مستقلة تحكي ابداعا غير مسبوق، وتعبيرنا بالتضخم لا نعني سوى الظاهرة الأدبية الفخمة التي لا يطالها احد من الأدباء ولا ينال غايتها كثير من الشعراء.

فمن روائع السيد حيدر الحلي:

عثر الدهرُ ويرجو ان يُقالا	تربت كفك من راجٍ مُحالا
أيُ عذرٍ لك في عاصفةٍ	نسفت من لك قد كانوا الجبالا

(١) النبي وآله في الشعر العربي للدكتور حازم سليمان الحلي: ٤٩.

فتراجـــــع وتنـــــصل نـــــدماً او تخـــادع واطلـــبِ المكـــر احتيـــالا

أنزوعـــا بعـــدما جئـــتَ بهـــا تنـــزع الأكبـــاد بالوجـــد اشـــتعالا

فـــرِغ الكـــفَ ولا ادري لمـــن في جفـــير الغـــدرِ تـــستبقي النبـــالا

نلـــتَ مـــا نلـــتَ فـــدع كـــل الـــورى عنـــك أو فاذهـــب بمـــن شـــئت احتمـــالا

ازلالُ العفـــو تبغـــي وعلـــى آل حـــوض الله حرمـــت الـــزلالا

لا أقـــالتني المقـــادير اذا كنـــتُ ممـــن لـــك يـــا دهـــرُ اقـــالا[1]

واذا اراد ان يصف حال النساء عند هجوم القوم عليهن فانه يبتكر صوراً تعز على اعتى خيال شعري ان يتصورها:

وحـــائراتٍ أطـــار القـــوم أعينهـــا رعبـــا غـــداة عليهـــا خـــدرها هجمـــوا

كانـــت بحيـــث عليهـــا قومهـــا ضـــربت ســـرادقاً أرضـــه مـــن عـــزهم حـــرمُ

يكـــاد مـــن هيبـــةٍ ان لا تطـــوف بـــه حتـــى الملائـــك لـــولا انهـــم خـــدمُ

فغـــودرت بـــين أيـــدي القـــوم حاســـرةً تـــسبى ولـــيس لهـــا مـــن فيـــه تعتـــصم[2]

ولم أجد فيما اطلعت عليه أحداً تتداعى لديه الصور الكربلائية كما تداعت للسيد حيدر الحلي، فهو يستحضر المشاهد، وتتوالى لديه الاحداث سراعا، وكأن صورةً تتبع اخرى في مسلسلٍ لا ينقطع عن الانهماك في تقديم موقف حي يتجلى فيه المشهد العاشورائي بأشخاصه، وقرع طبول الموت ترنُ في اسماع المتلقي حتى لا ينفك من مشهد مرعب يأخذ بالألباب، أو صهيل الكماة في معترك الابطال، أو قعقعة السيوف تطيح باختطافها جماجم صرعى على صهوات سوابق مهزومة تتسابق مع رؤوس أصحابها فتتداعى على ارض المعركة:

(١) النبي واله في الشعر العربي: ١١٠.

(٢) مقتل الحسين للمقرم: ٣١٦.

كفـاني ضـنى ان تـرى بالحـسين ... شـفت آلُ مـروان اضـغانها
فأغـضبت الله في قتلـهِ ... وأرضـت بـذلك شـيطانها
عـشية أنهـضها بغيهـا ... فجاءتـه تركـب طغيانهـا
بجمـع مـن الأرض سـد الفـرو ... ج وغطـى النجـود وغيطانهـا
وطـا الـوحش إذ لم يجـد مهربـاً ... ولازمـت الطـير اوكانهـا
وحفـت بمـن حيـثُ يلقـى الجمـوع ... يـثني بماضـيه وحـدانها
وسـامته يركـب إحـدى اثنتيـن ... وقـد صـرّتِ الحـرب أسـنانها
فإمـا يُـرى مـذعنا أو تمـو ... ت نفـسٌ أبـى العـز إذعانهـا
فقـال لهـا اعتـصمي بالابـا ... فـنفس الأبـي ومـا زانهـا
إذا لم تجـد غـير لـبس الهـوان ... فبـالموت تخلـع جثمانهـا
رأى القتـل صـبرا شـعار الكـرام ... وفخـراً يـزينُ لـه شـانها
فـشمر للحـرب في معـركٍ ... بـه عـرك المـوت فرسـانها
فأضـرمها لعنـان الـسما ... ء حمـراء تلفـح أعنانهـا
ركـينٌ ولـلأرض تحـت الكمـا ... ة رجيـفٌ يزلـزلُ ثهلانهـا
اقـر علـى الأرض مـن ظهرهـا ... إذا ململـل الرعـبُ اقرانهـا
تزيـد الطلاقـةُ في وجهـه ... إذا غـير الخـوفُ ألوانهـا
ولمـا قـضى للعـلا حقهـا ... وشـيد بالـسيف بنيانهـا
ترجـل للمـوت عـن سـابق ... لـه أخلـت الخيـلُ ميـدانها
كـأن المنيـة كانـت لديـه ... فتـاةٌ تواصـل خلـصانها
جلتهـا لـه البـيضُ في موقـفٍ ... بـه أثكـل الـسمر خرصـانها

فبـات بهـا تحـت ليـل الكفـاح	طـــروب النقيبـــة جـــذلانها
وأصـــبح مـــشتجراً للرمـــاح	تحلـــي الـــدما منـــه مرانهـــا
عفـــيراً متـــى عاينتـــه الكمـــاة	يختطـــف الرعـــب ألوانهـــا
فمـــا أجلـــت الحـــرب عـــن مثلـــهِ	صـــريعاً يجـــبن شـــجعانها
غريبـــا أرى يـــا غريـــب الطفـــوف	توســـدَ خـــديك كثبانهـــا
ألـــست زعـــيم بـــني هاشـــم	ومطعـــام فهـــرٍ ومطعانهـــا ؟![1]

فالبيت الواحد هنا خزينٌ من المعاني تتداعى فيه الصور ليوثق به الحادثة، فهو لا ينفك عن توارد المشاهد الحية تباعاً، ويحاول الشاعر أن يقدم صوراً متحركة تأخذ بعين المتلقي الذي ينشد لهذا المشهد أو ذاك فيعايش المعركة بجزئياتها، حتى لكأن قعقعة السيوف واصطكاك الرماح وصهيل الخيول تدوي في أسماع المتلقي ليعيش المعركة بملاحمها العسيرة ومواقفها الصعبة المريرة. وما أروعه حيث يصف الدهر بأنه تعثر فاخذ يرتطم بأعمدة الخير! لأنه أعمى لا يميز بين هذا وذاك.

مشى الدهر يوم الطف اعمى فلم يدع	عمـــادا لهـــا إلا وفيـــه تعثـــرا

ولا نريد ان نستعرض قصائد السيد حيدر الحلي بقدر ما أردنا ان نقدم نموذجاً ابداعياً عن الظاهرة الأدبية الحسينية، ولم أكن مبالغاً إذا قلت: ما من شعرٍ حسيني إلا وفيه إبداع يتجدد ومهارات فنية تستدعي كفاءة النظم وحماية التصوير.

وتتفاقم الظاهرة الأدبية لتحيل الفقهاء شعراء يحيون الواقعة الحسينية باشعارهم، ويتسابقون إلى نظم قصائدهم، ولا ادري ما الذي دعا العلماء ان يشاركوا الشعراء في مرثياتهم، ولعل الملكة الشعرية التي تنامت لديهم كانت دوافعها واقعة كربلاء، إذ تحريك الملكة وتنميتها وليد مشاعر حزينة تأخذ بالنفس إلى غايات الإبداع، ودواعي

(١) النبي وآله بالشعر العربي: ١١١.

الهمة، وعزيمة المنافسة، حتى أحيلت كربلاء إلى مدرسة إبداع، فالعلامة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء يشارك في رثاء الإمام الحسين برائعةٍ أدبية يضمنها نكات علمية تعطي لملحمته الأدبية بعداً آخر.

عدلت بآل محمد فيما قضت	وهمُ أئمة عدلها وقضاتها
المرشدون المرفدون فكم هدىً	وندىً تميح صلاتها وصلاتها
والمنعمون المطعمون اذا انبرت	نكباء صوحت الثرى نكباتها
والجامعون شتات غير مناقبٍ	لم تجتمع بسواهم أشتاتها
يا غاية تقف العقول كليلة	عنها وان ذهبت بها غاياتها
يا جذوة القدس التي ما أشرقت	شهب السما لو لم تكن لمعاتها
يا قبة الشرف التي لو في الثرى	نصبت سمت هام السما شرفاتها
يا كعبة الله التي ان حجت لها	الأملاك منه فعرشه ميقاتها
يا نقطة الباء التي باءت لها	الكلمات وائتلفت بها ألفاتها
يا وحدة الحق التي ما ان لها	السبع الطباق تحركت سكناتها
يا وجهة الاحدية العليا التي	بالاحمدية تستنير جهاتها
يا عاقلي العشر العقول ومن لها	السبع الطباق تحركت سكناتها

ثم يعرج على كربلاء بقوله:

ضربوا الخيام بكربلا وعليهم	قد خيمت ببلائها كرباتها

إلى ان يقول:

وبدت علوج أمية فتعرضت	للأسد في يوم الهياج شياتها

إلى آخر ملحمته التي بلغت أكثر من مئة وستين بيتا.

وملحمته الأخرى التي مطلعها:

أقوت فهن من الأنيس خلاء　　　دمنٌ محت آياتها الأنواء

والتي بلغت أكثر من ثمانين بيتا.

وقصيدته الثالثة التي مطلعها:

خذوا الماء من عيني والنار من قلبي　　　ولا تحملوا للبرق منا ولا السحب

والتي بلغت أكثر من أربعين بيتا.

أما قصيدته الرابعة فمطلعها:

في القلب حر جوى ذاكٍ توهجه　　　الدمع يطفيه والذكرى تؤجحه

وقد بلغت أكثر من أربعين بيتا كذلك.

ولم تقتصر إبداعاته الملحمية في الحسين عليه السلام على هذه الأربع العظام بل تعدها إلى أكثر من ذلك إلا اننا وقفنا عليها كما اختارها السيد المقرم (رضي الله عنه) في مقتله.

وللعلامة المحقق الشيخ محمد حسين الاصفهاني قصائد ملحمية يتعرض فيها الى مأساة كربلاء وقد جاء في بعضها:

لك الهنا ياسيد الكونين　　　فغاية الآمال في الحسين

لك الهنا يا صاحب الولاية　　　لنعمة ليس لها نهاية

الى ان يقول:

قام بحق السيف بل اعطاه　　　ما ليس يعطي مثله سواه

كأن منتضاه محتوم القضا　　　بل القضا في حد ذاك المقتضى

الى ان يقول:

هـــو الـــذبيح في منـــى الطفـــوف   لكنـــــه ضـــــريبة الـــــسيوف

الى آخر ملحمته التي بلغت المئات.

وللعلامة الحجة الشيخ محمد جواد البلاغي ملاحم مطلعها:

يـا تريـب الخـد في رمـضا الطفـوف   ليـــتني دونـــك نهبـــاً للـــسيوف

والقصيدة من روائع هذا الفيلسوف والمفسر الذي ملأ الدنيا بتحقيقاته.

وللعلامة الحجة الشيخ محمد حسين الحلي رائعته التي مطلعها:

خليلـي هـل مـن وقفـة لكمـا معـي   علــى جــدثٍ اسـقيه صـيب ادمعــي

لـيروي الثـرى منـه بفـيض مـدامعي   فـان الحيـا الوكـاف لم يـك مقنعـي

لان الحيـــا يهمـــي ويقلـــع تـــارة   واني لعظـم الخطـب مـا جـف مـدمعي

خليلـــيَّ هيـــا فالرقـــاد محـــرمٌ   علـى كـل ذي قلـبٍ مـن الوجـد موجـع

هلمـــا معـــي نعقـــر هنـــاك قلوبنـــا   إذا الوجـــد ابقانـــا ولم تتقطَّـــعِ

هلمـــا نقـــم بالغاضـــرية مأتمـــا   لخـــير كـــريم بالـــسيوف مـــوزع

إلى آخر القصيدة.

وللعلامة الشيخ محمد تقي الجواهري هائيته العصماء مطلعها:

دعـــاني فوجـــدي لا يـــسليه لائمـــه   ولكـن عـسى يـشفيه بالـدمع سـاجمه

الى أن يقول:

فـــان يـــك إسماعيـــل اسـلم نفـسه   إلى الـذبح في حجـر الـذي هـو راحمـه

فعـــاذ ذبـــيح الله حقـــا ولم يكـــن   تـــصافحه بـــيض الظبـــا وتـــسالمه

فان - حسينا - اسلم النفس صابرا   علـى الـذبح في سيف الـذي هـو ظالمـه

وهذا غيضٌ من فيض شعراء فقهاء قدموا أطروحاتهم الأدبية لتبقى مخلدةً في ذاكرة الدهر.

لقد كانت "الظاهرة الأدبية الحسينية" فتحا للإبداع الشعري وتسامت القصيدة العربية الى أرقى إبداعاتها حتى أكاد اجزم ان الإبداع الشعري ترعرع في واقعة الطف من يوم عاشوراء، ويبقى الإبداع الأدبي ينتسب إلى القصيدة الحسينية وان لم تنتمِ فكرا وعقيدة إلا أنها انتمت إبداعا، وانتسبت وجداناً، وتقلدت الحزن، وتسربلت زهو الفاتحين.

الظاهرة الاجتماعية

تُعد الظاهرة الاجتماعية من أبرز الظواهر الحسينية التي خلفتها عاشوراء، فقد عززت هذه الواقعة الثقة الاجتماعية بين أفراد الأمة وذلك من خلال وحدة الهدف المشترك الذي ربط الجميع، ونعني بالظاهرة الاجتماعية تحديدا هي حالة الترابط والتآلف الذي يمتاز به أتباع أهل البيت عليهم السلام بسبب واقعة عاشوراء، وربما سيكون هذا التعريف فيه تعميم لا يقدم الوضوح المرجو من التعريف كحدٍ لحدود الظاهرة، وهنا لابد ان نقرر اخص الحدود في تعريف هذه الظاهرة وذلك من خلال بسط المشاهد التي تقدم صورةً متكاملة عن القصد.

نحن لا نريد أن نغوص في أعماق القضية التاريخية بشكلها السردي ومن ثم التحليلي، إلا ان ثمت ترابطاً بين هذا السير التاريخي وبين الانسيابية الحاضرة للظاهرة الاجتماعية- العاشورائية.

إن الحاضر العاشورائي سيقرر لنا هذه الظاهرة المهمة والتي تعد من مظاهر عاشوراء العامة والتي خلفتها هذه الثورة المعطاء.

إن الباحث ليقف من خلال استعراضه التاريخي على جملةٍ من المطاردات الجسدية والفكرية كذلك، ولعل حقبة معاوية كانت هي الحقبة الحرجة التي مر بها شيعة أهل البيت عليهم السلام وما عاناه هذا الفكر من إلغاءٍ ومطاردة حتى أنّ ابن أبي الحديد

المعتزلي ذكر عن شيخه أبي جعفر الاسكافي بعض ملامح هذا العصر الهائج بمواقفه العاصفة ضد فكر أهل البيت فقال: «وذكر شيخنا أبو جعفر الاسكافي (رحمه الله تعالى) – وكان من المحققين بموالاة علي عليه السلام، والمبالغين في تفضيله؛ وان كان القول بالتفضيل عاما شائعا في البغداديين من أصحابنا كافة، إلا ان أبا جعفر أشدهم في ذلك قولا، وأخلصهم فيه اعتقادا– أن معاوية وضع قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية اخبار قبيحة في علي عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه؛ وجعل لهم على ذلك جعلا يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.

روى الزهري ان عروة بن الزبير حدثه قال: حدثتني عائشة قالت: كنت عند رسول الله اذ اقبل العباس وعلي فقال: يا عائشة ان هذين يموتان على غير ملتي أو قال: ديني.

وروى عبد الرزاق عن معمر قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي عليه السلام، فسألته عنهما يوما فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما والله اعلم بهما: اني لأتهمهما في بني هاشم.

قال: فاما الحديث الأول فقد ذكرناه، واما الحديث الثاني فهو ان عروة زعم ان عائشة حدثته، قالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذ اقبل العباس وعلي فقال: «يا عائشة إن سركِ ان تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»، فنظرتُ فإذا العباس وعلي بن أبي طالب.

واما عمرو بن العاص، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ان آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين».

واما أبو هريرة فروى عنه الحديث الذي معناه: أن عليا عليه السلام خطب ابنة أبي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأسخطه، فخطب على المنبر وقال:

لا والله، لا تجتمع ابنة ولي الله وابنة عدو الله أبي جهل، إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، فان كان علي يريد ابنة أبي جهل فليفارق ابنتي، وليفعل ما يريد...»[١].

إلى غير ذلك من محاولات الحذف والإلغاء للفكر العلوي الذي عانى من آل أبي سفيان ما لايخطر على بال أحد، ولنا ان نقف على ما انتشر من بغض علي عليه السلام في الأقطار حتى قال ابوجعفر الاسكافي في توصيف الانتماء الأموي للبلدان الإسلامية ما نصه:

كان أهل البصرة كلهم يبغضونه، وكثير من أهل الكوفة وكثير من أهل المدينة واما اهل مكة فكلهم كانوا يبغضونه قاطبة، كانت قريش كلها على خلافه، وكان جمهور الخلق من بني أمية عليه[٢].

ولك ان تقيس على مدى هذا المحنة التي عاشها المنتسبون لآل علي وكيف تعامل معهم الحكام وأدّى ذلك الى تهميشهم بل الى مطاردتهم و«من اشد الأيام التي مرت بها الشيعة قساوةً، هو زمن حكومة معاوية بن أبي سفيان، والتي استمرت زهاء عشرين عاما، لم تكن الشيعة بمأمن وكان اغلب رجال الشيعة يشار إليهم بالبنان، ولم تكن لدى الحسن والحسين عليهما السلام اللذين عاصرا معاوية أدنى الوسائل تمكنهم من القيام والقضاء على الأوضاع المؤلمة..»[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ٤، ٦٣ دار إحياء الكتب العربية الطبعة الثانية ١٣٨٠-١٩٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشيعة في الإسلام للسيد محمد حسين الطباطبائي: ٥٥ ذوي القربى قم ١٣٨٤ هـ.

ولا يمكننا هنا ان نتابع المسيرة التاريخية المؤلمة المضرجة بدماء الشيعة منذ عهود حتى ارتكز في الذهنية العامة ان المفردة الشيعية بكل مناحيها تعني المعارضة للنظام الحاكم وان الشيعي مهما كان فهو لا يعني إلا المعارضة للدولة، حتى وصل الأمر إلى أن الحاكم، الشيعي يعد -عند بعضهم- لا يمثل إلا حالة طارئة، والغريب في الأمر ان المتسولين السياسيين يصفون السياسي الشيعي بأنه يعوزه الانتماء الوطني في حين لا يزال هؤلاء مرتبطين بالمقدس "السياسي"، كما ان بعضهم لا يروق لهم السياسة الصادرة من ساسة عراقيين مجاهدين كونهم مصنفين، وهذا التصنيف المذهبي المقيت يأخذ بالبلاد إلى أبعاد كبيرة من الفتنة والتمزق ولا نريد أن نرمي إلى ابعد من ذلك فان العراق الدولة والوطن والمواطن عينة جيدة لدراستنا وسوف نلغي كل المشاهدات الطائفية التي تشارك في تأصيل هذه النظرة؛ لئلا يخرج البحث عن صياغاته الفنية، ونكتفي بالإشارة إلى دراسة الأستاذ حسن العلوي «الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤- ١٩٩٠» وهي دراسة جديرة بالاهتمام؛ إذ وضع الباحث نقاطا على الحروف لا يستغني أي احد عن الوقوف عندها والتأمل فيها.

المهم هنا التفريق بين الطائفي والمنتمي.

كل هذه الأمور تدفعنا للتفكير الجدي بمعالجة هذه المعضلة الطائفية والتي انخرط فيها الكثير - للأسف- بوعي مسبق أو بدون وعي، وذلك من خلال الموروثات الاجتماعية، على أننا نرغب في الإشارة إلى التفكيك بين ما هو طائفي وبين ما هو منتمٍ.

فمن المشكلات الفكرية التي واجهت المثقفين وحتى المتدينين بل انجرّ ذلك حتى إلى العامة، هي مشكلة التشخيص للطائفي ومن هو الطائفي.

فالحديث عن الطائفية والطائفي هو الحديث عن التمذهب السياسي والانتماء الفكري، فهناك فرق بين التمذهب السياسي الذي يعمل على إبعاد الآخر وتهميشه من خلال الأداة الحكومية أو السياسية التي تدخل في ترسيم الدولة والمواطنة، فيأخذ البعض

عنوان المذهبية عنصرا مهما في تحديد معالم المواطنة، وسيكون للانتماء الفكري في إقصاء أو تقريب مجموعة على أُخرى، وبذلك ستكون المواطنة تابعة لهذا الانتماء العقائدي وستترتب الآثار السياسية والحقوق المدنية بكل تفاصيلها على هذا الانتماء أو ذاك، فالتمذهب السياسي حينما يكون هو الأساس في مواطنة المواطن وتمتعه بحقوق المواطنة أو اقصاءاهما فستكون الطائفية الظاهرة بأجلى مصاديقها، وعلى هذا فقد عانى المواطن الشيعي طيلة أربعة عشر قرناً تمييزا طائفيا مقيتا، بل اخذ الأمر ابعد من ذلك فقد وصفت دولٌ شيعية بغير واقعها، ووصمت كياناهما خلاف حقيقتها واهمت بتهم تتراوح بين طائفية إلى شعوبية حتى إرهابية في أحايين أخرى، ولا نرغب في استعراض ما عانته هذه الدولة أو تلك من تنكيل وسحق لحضارهما ومصادرة لجهودها.

لا نريد أن نفتح ملفات القتل الجماعي الذي عاناه أتباع أهل البيت في عصور أموية وفترات عباسية ألغت معها هوية التشيع من الانتساب الرسمي للدولة أو إلغاء سمة المواطنة عمن ينتسب لمذهب أهل البيت حتى صار ذلك موروثا لكل الأنظمة الحاكمة التي تلت المشهد الأموي أو الحقبة العباسية التي غابت فيها معادلات الانتماء الديني أو الانتساب الوطني.

هذه الحالة شكلت محنة في الذات الشيعية التي عانت التهميش والإلغاء والتعامل معها على أساس المواطنة من الدرجة الأدنى، لكيلا تتبوأ أي مكانة في منصب من مناصب الدولة سواء في محافلها السياسية التنظيمية أو محافلها الاجتماعية العامة.

ومن المؤكد ان تبحث هذه الذات المغيبة والشخصية المطاردة عن آليات تحفظ وحدهما وتقاوم ظروف القهر والغلبة الحاكمة على شخصيتها المعنوية ووجودها العام بشكل يمنع معه كل التجاوزات الموروثة "للأقلية الحاكمة" على الأغلبية المحكومة – وكأن هذه المعادلة غير المتوازنة صارت هي العرف السياسي لبلدان الوجود الشيعي– ولأجل الإبقاء على الجماعة الشيعية بكل تراثها وقيمها وفكرها بل حتى وجودها

الشخصي فإنها لابد أن تنتهج منهج المقاومة، ولا اقصد هنا بالمقاومة انها المقاومة المسلحة ففي التشيع ان المقاومة المسلحة هي آخر الحلول، بل هناك المقاومة الايجابية التي تنتهجها الجماعات الشيعية والتي تتخذ المنهج الفكري والاسلوب الإعلامي برنامجا لنشر فكرها وبيان رؤيتها.

إن المقاومة "الايجابية" في المفهوم الشيعي يعني ان هناك مجتمعا تخلقه هذه المقاومة، أو مقاومة تخلق مثل هذا المجتمع، وعلى كلا التصوّرين فان المجتمع الشيعي الذي يؤهل المقاومة أو التي تؤهله المقاومة أو التي تؤهله المقاومة الايجابية يحتاج إلى بناء عقيدي، وهذا التنظيم سنراه ليس تنظيما سياسيا وليس للعسكرة شأنٌ في تكوينه، بل ولا للحزبية دخلٌ في تجذيره، بل سنراه تنظيما إنسانيا اعتباطيا تتدخل فيه مجموعة من الاعتبارات الإنسانية التي تدخل في صياغة المجتمعات المختلفة.

لقد باتت الحاجة ملحة إلى روابط اجتماعية تنمو في وسطٍ عقيدي يمنح هذه الروابط صفة الشرعية لبناء مجتمعات شيعية تترعرع وسط فكرة التضحية والفداء، أي ترسيخ مبدأ الفداء في أوساط هذا المجتمع، ومعلوم ان الشعائر الحسينية تكفلت في إعداد معطيين وتقديمهما:

الأول: في بناء مجتمعٍ متكامل.

الثاني: ان هذا المجتمع يترعرع وسط فكرة الفداء.

ولابد من الإشارة إلى هاتين القضيتين:

أما الأول

فان المشاعر الاحتفائية بقضيةٍ ما، لابد ان تجعل هذا الاحتفاء سبباً في تحشيد الوجدان العام الذي يصطف حيال تحقيق قضيةٍ يُراد إثباتها في وسط يتنكر لها ـ على الرغم من اعترافه بها لكن هذا الاعتراف لم يكن رسميا ـ على ان هذا التنكر يتفاقم إلى

مشروعٍ تصفوي لهذه الفئة المحكومة على يد حاكمها، ولابد ان يكون هذا التعاطي مع أمر كهذا يشكل محنة حقيقية لهذه الفئة المحكومة أو قل المغلوبة على أمرها وهي تحاول بطرقٍ مختصرة تحقيق أهدافها، ومن ثم الحفاظ على وجودها المغلوب وتناميها المنقهر، فكانت آليات التجمع الشعائري اسلوبا إبداعيا من اجل تنامي هذه المشاعر الحماسية التي تفرض على أصحابها اتخاذ السلوك الجمعي، أي اسلوب المجتمعات الوجدانية الحاشدة، وبمعنى آخر فإن التحشيدات الشعائرية ستخلق سلوكية الجماعة أو سينخلق لديها«المذاق الاجتماعي»، واقصد من «المذاق الاجتماعي» ان المجموعة الشعائرية لا تنمو إلا في وسط اجتماعي يتكتل من اجل تحقيق أهدافه أو إعلامها إلى الملأ.

إذن صارت الاجتماعية للأوساط الشعائرية ظاهرة، وهي التي نقصدها بالظاهرة الاجتماعية.

فالظاهرة الاجتماعية هي مجموعة الروابط الشعائرية التي أفرزتها مناسبة عاشوراء واستدعت اتباع أهل البيت إلى الاحتشاد داخل هذا المحفل الشعائري الذي يترجم مشاعرهم ووجدانياتهم.

أما المعطى الثاني

فان قضية الفداء تتنامى في المجتمع الشعائري بفعل توجهات هذا المجتمع إلى تحقيق أهدافه وهو يتطلب اجتماع أكثر من جهد لانجاز يدفع في أكثر من جهد لإنجاز المهمة الشعائرية ؛ على أن هذا الانجاز يدفع أكثر الأحيان إلى الحالة الفدائية التي تتصاعد وتائرها لإنجاز المهمة، ولا نبتعد كثيرا عن السياقات التاريخية الكربلائية التي أنجزت الفداء على انه الظاهرة الأكثر سطوعا في أرجاء الحادثة، وأؤكد على أن كربلاء أنجزت حالة الفداء في تعاطيها مع الأحداث أي ان هناك فداءً كربلائياً خاصاً اختصت به كربلاء بمشاهداتها ومواقف أصحابها حتى عممت كربلاء هذه الحالة إلى ظاهرة خاصة بها.

الظاهرة... المشاهدات والتجليات

تتجلى ظاهرة الاجتماعية في المناسبات التي أفرزها واقعة كربلاء، حيث نجد المناسبات الكربلائية تستمر على مدار السنة وتزدحم المناسبات العاشورائية لإحياء الرمز الكربلائي واذكائه في نفوس المتوافدين على زيارة الإمام الحسين عليه السلام ذلك الشهيد الذي ضحى من اجل المبادئ الإلهية، وتتصاعد مشاعر الحماس المصحوبة بالولاء كلما اقترب الإنسان من هذا الضريح المقدس الذي يحكي قصة التضحية، لذا فقد سن أئمة أهل البيت عليهم السلام هذه الزيارات والمناسبات، وكان اجتماع الزائرين مألفا بين حشودهم وافرادهم تستنهض فيهم روح التآلف والتعارف فيما بين الجميع وقد تشكل هذه الأثنينية بين الأفراد داعيا مهما للالتقاء والتعارف فيما بين الجميع.

إذن فالظاهرة الاجتماعية إحدى تجليات الشعائر الممارسة والتي تستقطب العديد من أتباع أهل البيت عليهم السلام لتكوِّن شبكة من العلاقات الاجتماعية العامة التي تفتقدها العديد من الانتماءات في أي مجتمعٍ مدني عدا المجتمع الحسيني الذي اخذ بالتنامي بالرغم من مطاردات السياسة وتنكيلات الأنظمة الاستبدادية.

الظاهرة الترفيهية

وهي جزء من الظاهرة الاجتماعية أو إحدى آثارها.

يشعر أتباع أهل البيت عليهم السلام – على الرغم من الضغوط النفسية التي يفرضها الآخر نظاما سياسيا أو مدنيا - على يومياهم الملأى بالأحداث المفاجئة من تنكيل أو مطاردة أو هميش أو غمط لحقوقهم أو تجاهل لذاهم أو النظر إليهم بأهم الحالة الشاذة غير المرغوبة في أوساط الآخر إلى غير ذلك من مقتضيات التهميش، وهذا الحصار الاجتماعي يتراكم ليولد حالة إحباط نفسي أو التعرض إلى حالات من الإسقاط، هذا على المستوى النظري، إلا اننا عمليا لم نلمس هذه الحالة لدى الفرد

الشيعي أو الجماعة الشيعية حتى تلك التي تعيش في وسط آخر يفرض عليها تلك القيود المذكورة، اذ ان النفسية الشيعية تنغمس في شعور من الأمل والتفاؤل الذي يخلصها من جميع هذه المكابدات النفسية وهذا الأمل يتخذ حالة الانتظار لمخلِّص موعود وهو الإمام المهدي ـ كما هو متبانى عليه في التراث الإسلامي سواء الشيعي أو السني على حد سواء إلا ان الشيعي تعامل مع هذا التراث النبوي بجديةٍ عاليةٍ وخصوصية ممتازة اورثته حالة التعايش الواقعي – النفسي مع هذه القضية المهدوية ولسنا في صدد استعراضها ـ فعلى الرغم من حالة المضايقة "التقليدية" التي يعيشها الفرد الشيعي المحكوم، إلا ان ذلك لم يخلق لديه حالة إحباط أو تعثر في مسيرته، فهو يتعامل مع الأحداث برصانة وكياسة وذلك إضافة إلى حالة الأمل التي تقضيها النفسية الشيعية مع تطلعات الظهور الموعود للمنقذ والمخلِّص، فإنها تحظى بحالة من الطمأنينة العالية فضلا عن حالةٍ ترفيهيةٍ تعيشها الشخصية الشيعية بسبب المناسبات الشعائرية التي يحتفي بها اتباع أهل البيت، فان التجمعات الشعائرية تخلق حالة تعايش بين جميع المشاركين ويتعاظم الشعور المشترك بينهم، وهذا الشعور المشترك هو الذي يوجد حالة التآلف والتحابب بين المشاركين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان تنظيم سفرات على مدار السنة إحياء لمناسبات أهل البيت عليهم السلام تبعث على الارتياح والشعور العام لدى المشاركين فترى ان هذه "الرحلات الشعائرية" تزيد من الانبساط النفسي لدى الزائر حتى تكوّن حالة من حالات تجديد النشاط والشعور بالحيوية المتجددة التي يحتاجها الإنسان المبدع، لذا فاني لا أبالغ ان الفرد الشيعي يكون الأبدع في مجال عمله لدى كل الأوساط التي يتعايش معها، إذن فالحالة الترفيهية ضرورية في خلق الشخصية المتكاملة والتي لا تعاني من أي انتكاسات نفسية، في حين نجد الآخر غير المنتسب لمدرسة آل البيت يعاني من احباطات نفسية دائمة، وهو وإن يحظى بحركة سياحية معينة إلا ان هذه الحركة السياحية غير هادفة أولا، وغير منتظمة أو منضبطة اجتماعياً ثانياً.

واقصد من كونها هادفة أو غير هادفة، أنّ السفرات الشعائرية تهدف إلى تحقيق هدفٍ غيبي وهو الرضا والأجر الذي سيشمل الزائر عند وصوله إلى المرقد المزور أو المشاركة في إحياء شعيرةٍ ما، فانه سيصل إلى حالة الانتعاش الروحي والمعنوي حينما يشعر انه حقق هدفاً مهماً وهو الحصول على الأجر الإلهي، وقد تعارف لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام اهتمام الأئمة بهذه الحركة والدعاء لمن يزور مراقدهم ويتعاهدها خصوصاً زيارة الإمام الحسين عليه السلام فإنها تعني لدى أهل البيت الشيء الكثير الذي يؤكد على حقوقهم وإبقاء مظلوميتهم شاهدة عيان، وحديث معاوية بن وهب ملحمة في الحث على الزيارة وبيان اهتمام الأئمة بذلك واظهار مقام الزائر وشأنه عندهم.

إن معاوية بن وهب حينما دخل على الإمام جعفر الصادق عليه السلام وجده ساجدا وهو يدعو بهذا الدعاء يقول:

«اللهم يا من خصنا بالكرامة ووعدنا الشفاعة وخصنا بالوصية واعطانا علم ما مضى وعلم ما بقي، وجعل أفئدة من الناس تهوي الينا، اغفر لي ولإخواني وزوار قبر جدي الحسين الذين أنفقوا أموالهم واشخصوا ابدانهم رغبة في برنا ورجاء لما عندك في صلتنا وسرورا ادخلوه على نبيك وإجابة منهم لأمرنا وغيظاً ادخلوه على عدونا أرادوا بذلك رضاك فكافئهم عنا بالرضوان واكلأهم بالليل والنهار، واخلف على أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف، واصحبهم واكفهم شر كل جبار عنيد، وكل ضعيف من خلقك وشديد، وشر شياطين الإنس والجن. وأعطهم أفضل ما أملوه في غربتهم عن أوطانهم. وما آثروا به على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم.

اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم إلينا فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنا.

اللهم ارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس.

وارحم تلك الخدود التي تقلبت على حفرة أبي عبد الله الحسين.

وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا.

وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا.

وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا.

اللهم إني استودعك تلك الأنفس والأبدان حتى توفيهم على الحوض يوم العطش الأكبر.

ولما استكثر معاوية بن وهب هذا لزوار الحسين قال له الإمام عليه السلام:

إن مَن يدعو لزوار الحسين في السماء أكثر ممن يدعو لهم في الأرض[(١)].

هذا الدعاء يؤكد على ضرورة مواصلة الاتباع لزيارة مراقد أئمتهم لحصول البركة الدنيوية والأجر الأخروي الذي لا ينال أمثاله إلا بهذه الزيارات الشعائرية. اما كون الاقتصادية: منتظمة أو منضبطة فان هذه الزيارات ذات هدفية متوخاة من قبل الزائرين، سواء كانت هذه الهدفية دينية ـ وهي أولها ـ أو سياسية، أو اجتماعية، والهدفية السياسية تعمل على بعث رسائل للحاكم ليقرأ فيها توجهات الشعائريين أو مطالبهم، والهدفية الاجتماعية تسعى الى محاولات التعايش السلمي والاجتماعي بين الشعائريين أنفسهم، وبينهم وبين فئات المجتمع الأخرى وذلك من خلال الاحتكاك الاجتماعي بسبب نشوء علاقات بين الجميع تهدف إلى تقوية أواصر الصِلات والترابط التي تجمع أتباع أهل البيت من خلاله في كسر الحاجز النفسي الذي ضربه الحاكم على اتباع أهل البيت وبذلك تجاوزوا محنة المحاصرة، وتخطوا أسباب العزلة التي فرضها عليهم الحكام.

---

(١) كامل الزيارات: ١١٦ وثواب الاعمال للصدوق: ٥٤ عن مقتل المقرم: ١١١.

الظاهرة الاقتصادية

لسنا في صدد استعراض الحالة الاقتصادية الشيعية كإحصائية اقتصادية أو اجتماعية، لكننا في صدد بيانية التلكؤ في توزيع الثروة في الغبن الذي أصاب الفرد الشيعي نتيجةً للسياسات الطائفية التي انتهجتها الحكومات المتسلطة على المجتمع الشيعي منذ عقود.

لقد أدت السياسات الطائفية في العراق - مثلا - إلى انتهاج سياسة الفوضى الاقتصادية من اجل ضرب طبقة نامية من التجار الشيعة، ففي عام ١٩٤٨ بدأت هجرة اليهود من العراق الذين يشكلون طبقة مهمة من تجار العراق، وما إن خلت السوق العراقية من التجار اليهود حتى استطاعت الأكثرية الشيعية أن تأخذ زمام المبادرة في السوق العراقية، ونمت طبقة التجار الشيعة في غضون عقد تقريبا حتى بدأت بوادر الاقتصادية الطائفية التي تزعمها النظام الدكتاتوري المتسلط على شيعة العراق عام ١٩٦٣، ثم تلاه انقلاب ١٩٦٨ الذي سعى بإسدال الستار على النشاط الاقتصادي الشيعي، وذلك من خلال ملاحقة التجار الشيعة بين إعدامهم وزج البعض في السجون وتسفير الآخرين إلى خارج العراق بحجة التبعية الأجنبية، وهكذا تلاشت القوة الاقتصادية للشيعة عدا بعض الوجودات لاقتصاديات شيعية متزعزعة ومهددة من قبل النظام تتلاشى بين الحين والآخر.

لم يكن ذلك عائقاً من إبقاء الشيعة في مكانةٍ اجتماعيةٍ تتحدى معها صعوبات السلطة ومحن المطاردات المفروضة، فالحالة الاقتصادية الشيعية المقهورة تعالجها آليات اقتصادية أخرى اصَّلها أهل البيت وأسسوا لها نمطاً اقتصادياً يعتمد على القرآن الكريم لقوله تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

وهذه الآية الكريمة تفرض توزيع الثروات الاقتصادية بين الناس على أساس وضع متجانس يقضي على حالة الفقر أو يخفف – على الأقل ـ من أزمات الفقر الطبيعية أو المفتعلة، ونمت هذه العلاجية في الوسط الإسلامي وتركزت خصوصا في الوسط الشيعي على اعتبار ان الغنيمة الواردة في الآية الكريمة هي كل ما يغتنمه الإنسان في حركته اليومية العملية، وما يجنيه من خلال ممارسات السوق أو المعاملات اليومية وما يكتسبه من خلال عملياته الاقتصادية فضلا عن شمول الغنيمة لغنائم الحرب، في حين تقتصر المدارس الإسلامية الأخرى على مفهومٍ واحد من الغنيمة وهي غنيمة الحرب دون ان تدخل الغنائم الاقتصادية العملية في هذا المفهوم، وهو بحث يحتاج إلى تفصيل ليس محله هنا، إلا اننا نريد ان نقف على أن الفكر الشيعي التزم الاقتصاديات الإسلامية كحلول لمعالجات أزمات الفقر الحادة بين طبقات المجتمع الشيعي هذه المعالجة ـ معالجة الخمس ـ المنتشرة في الوسط الشيعي لم تكن هي وحدها تتكفل في إنقاذ الاقتصاد الشيعي فان آليات أخرى أسسها أهل البيت عليهم السلام، وذلك ضمن سياقات شعائرية أسهمت وبشكلٍ فعال في رفع المستوى المعيشي للوضع الشيعي بشكلٍ مثير، فالمواسم الشعائرية ـ مثلا ـ في الزيارات المخصوصة التي يجتمع فيها الملايين

(١) الانفال: ٤١.

من الزائرين تتطلب حركة اقتصادية غير طبيعية تدخل فيها مجالات عدة منها الفنادق التي يحتاجها جموع الزائرين، ومنها وسائط النقل للقطاعات الخاصة التي تتكفل في نقلهم، ومنها المطاعم التي تعمل على توفير الوجبات المستمرة لإطعامهم، فضلا عن محلات البيع التي تعمل ليل نهار لرفد الزائرين الذين يتبضعون لحمل هداياهم الى أهاليهم وأصدقائهم. هذه الحركة الاقتصادية تدفع بالاقتصاد الفردي والاجتماعي إلى مؤشرات غير مسبوقة تنمو من خلالها الدخول الفردية للمجتمع الشيعي، وبمعنى آخر ان القضية الحسينية آثرت الاقتصاد الشيعي بفعل الحركة الشعائرية التي تلت هذه الواقعة، وشاركت في ترسيم الجدوى الاقتصادية الشيعية، وأسست بسببها طبقات من المستثمرين غير العاديين.

لم تقف الظاهرة الاقتصادية عند حدود مواسم الزيارات المخصوصة، بل ان هذه الظاهرة ـ خصوصا في العقود الاخيرة ـ شملت الحياة اليومية للقطاعات الشيعية مما تكفَّل بإيجاد مدخول شيعي متميز لا يخضع لمضايقات السلطة، ولا تستطيع السلطة بدورها ان تحدد مسارات الاقتصاد الشيعي الحر، وهو اقتصادٌ حسيني بكل أبعاده، فالحركة "السياسية الشعائرية" مستمرة يومياً على مدار السنة من دون توقف مما اثَّر ذلك في المدخول الشيعي، بل وفي الشخصية الشيعية المتحررة من هيمنة النظام ومضايقات السلطة.

والحمد لله أولاً وآخراً كما هو اهله حمداً كثيراً دائماً سرمداً يليق بجلاله وجماله وصلى الله على نبيه المصطفى وآله الميامين المعصومين المنتجبين.

المحتويات

سلسلة إصدارات قسم الشؤون الفكرية والثقافية

في العتبة الحسينية المقدسة

ت	اسم الكتاب	تأليف
١	السجود على التربة الحسينية	السيد محمد مهدي الخرسان
٢	زيارة الإمام الحسين عليه السلام باللغة الانكليزية	
٣	زيارة الإمام الحسين عليه السلام باللغة الأردو	
٤	النوران ـ الزهراء والحوراء عليهما السلام ـ الطبعة الأولى	الشيخ علي الفتلاوي
٥	هذه عقيدتي ـ الطبعة الأولى	الشيخ علي الفتلاوي
٦	الإمام الحسين عليه السلام في وجدان الفرد العراقي	الشيخ علي الفتلاوي
٧	منقذ الإخوان من فتن وأخطار أخر الزمان	الشيخ وسام البلداوي
٨	الجمال في عاشوراء	السيد نبيل الحسني
٩	إبكِ فإنك على حق	الشيخ وسام البلداوي
١٠	المجاب بردّ السلام	الشيخ وسام البلداوي
١١	ثقافة العيدية	السيد نبيل الحسني
١٢	الأخلاق (تحقيق: شعبة التحقيق) جزئين	السيد عبدالله شبر
١٣	الزيارة تعهد والتزام ودعاء في مشاهد المطهرين	الشيخ جميل الربيعي
١٤	من هو؟	لبيب السعدي
١٥	اليحموم، أهو من خيل رسول الله أم خيل جبرائيل	السيد نبيل الحسني
١٦	المرأة في حياة الإمام الحسين عليه السلام	الشيخ علي الفتلاوي
١٧	أبو طالب عليه السلام ثالث من أسلم	السيد نبيل الحسني
١٨	حياة ما بعد الموت (مراجعة وتعليق شعبة التحقيق)	السيد محمدحسين الطباطبائي
١٩	الحيرة في عصر الغيبة الصغرى	السيد ياسين الموسوي
٢٠	الحيرة في عصر الغيبة الكبرى	السيد ياسين الموسوي
٢١	حياة الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) ـ ج١	الشيخ باقر شريف القرشي

٢٢	حياة الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) ـ ج٢	الشيخ باقر شريف القرشي
٢٣	حياة الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) ـ ج٣	الشيخ باقر شريف القرشي
٢٤	القول الحسن في عدد زوجات الإمام الحسن عليه السلام	الشيخ وسام البلداوي
٢٥	الولايتان التكوينية والتشريعية عند الشيعة وأهل السنة	السيد محمد علي الحلو
٢٦	قبس من نور الإمام الحسين عليه السلام	الشيخ حسن الشمري
٢٧	حقيقة الأثر الغيبي في التربة الحسينية	السيد نبيل الحسني
٢٨	موجز علم السيرة النبوية	السيد نبيل الحسني
٢٩	رسالة في فن الإلقاء والحوار والمناظرة	الشيخ علي الفتلاوي
٣٠	التعريف بمهنة الفهرسة والتصنيف وفق النظام العالمي (LC)	علاء محمدجواد الأعسم
٣١	الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام	السيد نبيل الحسني
٣٢	الشيعة والسيرة النبوية بين التدوين والاضطهاد (دراسة)	السيد نبيل الحسني
٣٣	الخطاب الحسيني في معركة الطف ـ دراسة لغوية وتحليل	الدكتور عبدالكاظم الياسري
٣٤	رسالتان في الإمام المهدي	الشيخ وسام البلداوي
٣٥	السفارة في الغيبة الكبرى	الشيخ وسام البلداوي
٣٦	حركة التاريخ وسننه عند علي وفاطمة عليهما السلام (دراسة)	السيد نبيل الحسني
٣٧	دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء ـ بين النظرية العلمية والأثر الغيبي (دراسة) من جزئين	السيد نبيل الحسني
٣٨	النوران الزهراء والحوراء عليهما السلام ـ الطبعة الثانية	الشيخ علي الفتلاوي
٣٩	زهير بن القين	شعبة التحقيق
٤٠	تفسير الإمام الحسين عليه السلام	السيد محمد علي الحلو
٤١	منهل الظمآن في أحكام تلاوة القرآن	الأستاذ عباس الشيباني
٤٢	السجود على التربة الحسينية	السيد عبد الرضا الشهرستاني
٤٣	حياة حبيب بن مظاهر الأسدي	السيد علي القصير
٤٤	الإمام الكاظم سيد بغداد وحاميها وشفيعها	الشيخ علي الكوراني العاملي
٤٥	السقيفة وفدك، تصنيف: أبي بكر الجوهري	جمع وتحقيق: باسم الساعدي
٤٦	موسوعة الألوف في نظم تاريخ الطفوف ـ ثلاثة أجزاء	نظم وشرح: حسين النصار